كتاب
وزارة التربية والتعليم . مصر
نصوص مختارة
من
تولستوى
تقديم
ستيفان تڤايج
راجعه
على أدهم
ترجمه
دكتور شكرى محمد عياد

الألف كتاب

(٢٨٦)

نصوص مختارة

من

تولستوى

الادارة العامة للثقافة
وزارة التربية والتعليم
الاقليم الجنوبى

تصدر هذه السلسلة بمعاونة المجلس الأعلى
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب
(٢٨٦)

نصوص مختارة

من

تولستوي

تقديم
ستيفان تسفايج

ترجمه
شكري محمد عياد

راجعه
علي أدهم



دار القلم

هذه ترجمة كتاب

The Living Thoughts of Tolstoi

تقـــديم

STEFAN ZWEIG

مقـدمة

ولد الكونت ليوتولستوى فى منزل أسرته « بياسنايا پوليانا » بروسيا فى التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٨٢٨ .

وكان ينحدر من أسرة عريقة . وكان مستهتراً فى شبابه ، ثم دخل الجيش واشترك فى حرب القرم . وبدأ يكتب وهو فى الجندية . وعندما انتهت الحرب كان قد اكتسب شهرة ، وكانت أفكاره تتجه شيئاً فشيئاً وجهة اشتراكية جادة ، متأثرة بالسياسة التقدمية التى اتبعها القيصر الإسكندر الثانى . وفى سنة ١٨٦٢ تزوج ووفق فى زواجه ، وشهدت السنوات العشر التالية ظهور روايتيه الكبيرتين « الحرب والسلام » و « أنّا كارنينا » . وأمضى بقية حياته فى ضيعته ، مشغولا بأعمال الخير ، وملتزماً البساطة المتزايدة فى عيشته . حتى مرض فجأة ومات فى العشرين من نوفمبر سنة ١٩١٠ .

تولستوى

لستيفان تسفايج

في السابع والعشرين من يولية سنة ١٨٨٣ ، بعث الكاتب الروسى تورجنيف — وهو أعظم كتاب قومه بعد تولستوى — بخطاب مؤثر إلى صديقه تولستوى فى ياسنايا بوليانا . لقد ظل سنوات عدة ينظر فى قلق إلى تولستوى الذى كان يعده أعظم كتاب بلاده ، وهو ينصرف عن الأدب ليستغرق فى « خلقية صوفية » ؛ هذا الرجل الذى بذ الجميع فى تصوير الطبيعة والإنسان لم يعد على مكتبه الآن إلا كتب اللاهوت والكتاب المقدس ، وكان تورجنيف يخشى أن يضيع تولستوى أهم سنوات نضجه الفنى فى تأملات دينية بعيدة عن العالم كما فعل جوجول . ولذلك تحامل على نفسه وهو فى مرضه الأخير ليمسك ريشته — أو قلبه على الأصح ، لأن يده الضعيفة لم تعد تقدر أن تمسك الريشة — ويكتب إلى أكبر عبقرى عالمى فى بلاده نداءً مؤثراً . لقد كان هذا النداء — كما قال — الرغبة الأخيرة الحارة لرجل يموت : « عد إلى الأدب ! إنه موهبتك الحقيقية . أيها الشاعر

العظيم ، يا شاعر أرضنا الروسية ، اسمع دعائى ! »

لم يجب تولستوى من فوره على تلك الصيحة المؤثرة من فراش الموت (كان الخطاب مقطوعاً فى وسطه ، وقد كتب تورجنيف أن قوته خانته) ؛ وعندما عزم على الكتابة أخيراً كان الوقت قد فات ومات تورجنيف دون أن يعلم أن رغبته قد وجدت أذناً صاغية. ولكن لعله كان من العسير على تولستوى أن يجيب صديقه وينصاع له ؛ فإن الذى كان يدفعه فى طريق العكوف والبحث عن الله لم يكن غروراً ولا رغبة متأملة فى الاستطلاع ؛ ولكنه كان يشعر أنه مجتذَب إلى هذا الطريق على غير إرادة منه ، بل برغم إرادته فى الحقيقة . إن تولستوى الذى كان رجلا دينوياً ملتصقاً بالأرض ، والذى رأى الجانب الحسى من عالمنا وشعر به أكثر من أى إنسان آخر ، لم يسبق له قط فى حياته كلها أن أبدى ميلا إلى الميتافيزيقا ، ولم يكن قط مفكراً لدافع أصيل نحو التفكير أو للذة التفكير ، ولقد كانت العناصر الحسية فى الحياة ، هى التى شغلت الجانب الأكبر من اهتمامه فى فنه الملحمى . وإذن فهو لم يتجه إلى التأمل عن قصد ، ولكنه تلق — على حين غرة — ضربة مفاجئة : ضربة من مكان ما فى الظلام ، جعلت هذا الرجل القوى الركين الصحيح البدن ، الذى اقتحم الحياة دائماً منتصب القامة واثقاً من نفسه ، يترنح ويلتمس بيديه سنداً يقبض عليه .

هذه الصدمة الداخلية التى تلقاها تولستوى وهو فى نحو الخمسين ليس لها اسم ولا سبب ظاهر على الحقيقة . فكل ما يمكننا أن نظنه ضروريا للحياة السعيدة قد جاءه منقاداً فى هذه الفترة من حياته . كان تولستوى صحيح الجسم ، بل كان أقوى جسما من أى رجل من معاصريه . وكان فى عنفوان قواه الفكرية ، وفى نضارة قدرته الفنية . وكان سيد ضيعة كبيرة ، فلم يكن يزعجه شىء من المتاعب المادية . وكان ذائع الصيت لأنه أولا سليل أسرة من أعرق الأسر الأرستقراطية ، ولأنه ثانياً - وهذا هو الأهم - أعظم كاتب فى اللغة الروسية ، وروائى ذو شهرة عالمية . وكانت حياته المنزلية يسودها الوفاق التام ، فله زوجة وأولاد ، وليس ثمة ما يشير إلى سبب واحد ظاهر يمكن أن يؤدى إلى أقل سخط على الحياة .

وفجأة جاءته هذه الضربة من الظلام . واستطاع تولستوى أن يشعر بأن شيئاً مخيفاً قد حدث له . « لقد توقفت الحياة عن الحركة ، واستحالت كئيبة منذرة . » وكأنما كانت كل جوارحه تسائله عما حدث : لماذا هذه السوداوية المفاجئة ، وهذه النوبات من الرعب ، ولماذا لم يعد شىء يسره أو يحركه ؟ لم يكن يشعر إلا بأن العمل يبعث حنقه ، وأن زوجته تبدو له غريبة ، وأولاده لا يحركون شعوره . لقد استولى عليه اشمئزاز من الحياة ، وملل

من العيش ، وأخفى بندقية صيده فى درج مغلق مخافة أن يصوبها إلى نفسه يأساً . وهو يصف هذه الحالة فى صورة فنية رسمها لنفسه ، صورة « ليفين » فى « أنا كارنينا » ، فيقول : « فى ذلك الوقت تجلّت له — لأول مرة — فكرة أن كل حى ليس أمامه شىء يتوقعه إلا العذاب والموت والفناء الأبدى ؛ وهذا شأنه هو نفسه أيضاً . فقرر أنه لا يمكنه المضى فى الحياة على هذا النمط ؛ فإما أن يجد تفسيراً للحياة وإما أن يضرب نفسه بالرصاص . »

ومن العبث أن نضع اسماً لهذه الفورة الباطنية التى أحالت تولستوى إلى متأمل ومفكر ومعلم حياة . ولعلها لم تكن إلا تحولا فى نشاطه الجسمى ، أو خوفاً من الشيخوخة ، أو خوفاً من الموت ، أو كآبة عُصابية أدت إلى شلل روحى عابر . ولكن طبيعة الإنسان المفكر ، ولا سيما الفنان ، هى أنه يلاحظ أزماته الداخلية ويحاول التغلب عليها . وقد استولى على تولستوى فى أول الأمر قلق مبهم ، وأراد أن يعرف ماذا حدث له ، ولماذا غدت الحياة فجأة ضحلة لا معنى لها ، وهى التى كانت تبدو له من قبل معقولة جداً ، غنية جداً ، خصبة جداً ، متنوعة جداً . وكما شعر « إيفان إيليتش » فى قصته الرائعة بمخالب الموت لأول مرة وسأل نفسه فزعاً : « أترانى لم أعش كما كان ينبغى أن أعيش ؟ » أخذ تولستوى يمتحن نفسه يوماً بعد يوم عن حياته ، وعن معنى الحياة .

فكان باحثاً عن الحقيقة وفيلسوفا ، لا عن لذة فطرية فى التأمل ولا عن حب استطلاع فكرى ، ولكن من أجل المحافظة على النفس ، ونتيجة لليأس . فتفكيره كتفكير بسكال ، فلسفة على حافة الهاوية أو خارجة منها ؛ لقد كان يبحث عن الحياة فى خوفه من الموت والعدم . ولدينا من تولستوى وثيقة غريبة ترجع إلى هذه الفترة : قصاصة ورق أحصى عليها « الأسئلة المجهولة » الستة التى كان يجب أن يجيب عنها :

(ا) لماذا أعيش ؟

(ب) ما سبب وجودى ووجود كل إنسان غيرى ؟

(حـ) ما الغرض من وجودى أو من أى وجود آخر ؟

(ى) ما دلالة الخلاف الذى أشعر به فى داخلى بين الخير والشر ، ولأى غرض يوجد هذا الخلاف ؟

(هـ) كيف يجب أن أعيش ؟

(و) ما الموت — كيف يمكننى أن أصل إلى النجاة ؟

ولقد كانت الإجابة عن هذه الأسئلة — كيف يحيا هو وغيره الحياة الصحيحة — هى معنى سيرة تولستوى وغرضها فى الثلاثين سنة التالية ، أكثر مما كان عمله الأدبى .

وجاءت المرحلة الأولى من هذا البحث عن معنى الحياة نتيجة

طبيعية تماما . فعلى الرغم من أن تولستوى كانت لديه بعض النزعات العدمية[1] ، وأهم مظهر لها هو فلسفته التاريخية فى «الحرب والسلام» فإنه لم يكن قط شكاكا . فقد عاش فى الظاهر والباطن عيشة مطمئنة ، حرة ، أبيقورية ، نشيطة . وعندما تحول فجأة إلى الفلسفة بدأ بالرجوع إلى الثقات لمعرفة رأيهم فى أى شىء يعيش الإنسان من أجله . فشرع يقرأ الكتب الفلسفية على اختلاف نزعاتها : شوبنهاور وأفلاطون ، وكانت وبسكال ، طالباً منها أن تفسر له معنى الحياة . ولكن لا الفلاسفة ولا العلوم قدمت إليه جواباً . وساء تولستوى أن وجد آراء هؤلاء الحكماء « لا تكون واضحة دقيقة إلا حيث لا تتناول الأسئلة المباشرة فى الحياة » ، أما إذا طلبت منها نصيحة مقررة ومعونة واضحة فإنها تتجنب الإجابة تجنبا ؛ ولم يجد فلسفة واحدة منها قادرة على أن تفسر له هذا الأمر الذى كان يعتقد هو أنه مهم : « مامعنى حياتى ، من حيث الزمن ، والسبب ، والمكان ؟»

ومن ثم تحول — فى المرحلة الثانية — عن الفلاسفة إلى الأديان — ملتمساً فيها العزاء . لقد عزت عليه المعرفة ، فبحث عن الإيمان ، ودعا : « رب هبنى إيماناً وهب لى أن أساعد غيرى ليجدوه » .

---

(١) العدمية nihilism ، حركة فكرية ظهرت فى روسيا فى العقد السابع من القرن التاسع عشر ، مدارها الثورة على استبداد السلطة ومناقشة كل مبدأ عام أو قيمة مثالية . (المترجم).

وإذن فلم يكن تولستوى فى هذه المرحلة المضطربة قد عنى بعد بمبدأ كونى ؛ لم يكن مبشراً ولا ثائراً روحيا ، وإنما كان يريد أن يجد لنفسه طريقاً وهدفا ، له هو ذلك الفرد الحائر ، ليو تولستوى كى يستعيد سلامه النفسى . وكان على حد قوله لا يريد إلا أن « ينجو » من تفكيره العدمى ، وأن يجد معنى للوجود عوضاً عن خلوه من المعنى . ولم يكن إذ ذاك يفكر أو يحلم بإعلان إيمان جديد ولا يرغب فى أن يخرج عن حدود المسيحية الأرثوذكسية المتوارثة القديمة . بل على العكس ، راح يقترب من الكنيسة من جديد ؛ كان قد ترك الصلاة والذهاب إلى الكنيسة وتناول القربان حين بلغ سن العاشرة ، فجهد ما استطاع ليكون كامل التقوى ، واتبع كل أوامر الكنيسة ورسومها ، وصام ، وحج إلى الأديرة ، وركع أمام الأياقين ، وناقش الأساقفة والقسس وأهل الفرق ، وعنى قبل كل شىء بدراسة الأناجيل .

وعندئذ حدث له ما يحدث دائماً لطلاب الحقيقة الذين لا يهدءون . وجد أن شرائع الأناجيل وأوامرها قد أهملت ، وأن ما تدعو إليه الكنيسة الأرثوذكسية الروسية على أنه تعاليم المسيح لم يكن قط هو التعليم الأصلى « الحق » للمسيح . وهنا اكتشف مهمته الأولى : أن يشرح المعنى الحقيقى للإنجيل ، وأن يعلم هذه المسيحية للجميع « على أنها فهم جديد للحياة ، لا على أنها عقيدة

صوفية » . وأخذ اليأس الشخصى يتشكل عقيدة ذات سلطان ، وتجديداً لكل تفكير عقلى وخلق ، ونظرية جديدة فى علم الاجتماع أيضا . وأخذ ذلك السؤال الأول الفزع الذى ألقاه على نفسه رجلٌ وحيد : « لماذا أعيش ، وكيف أعيش ؟ » أخذ يتحول إلى دعوة عامة للإنسانية : « هكذا يجب أن تعيشوا ! »

وكانت الكنيسة قد اكتسبت من تجربة ألف سنة حساً مرهفاً بالخطر الذى يكمن فى كل تفسير فردى للأناجيل . فالكنيسة تعلم أن كل من يأخذ فى تشكيل حياته وفقاً لنص الكتاب المقدس لابد أن ينتهى إلى صراع مع نظم الكنيسة وقوانين الدولة . وقد منعت الرقابة أول كتاب لتولستوى فى المبادئ « اعترافى » ، كما منع المجمع المقدس كتابه الثانى « إيمانى » . وعلى الرغم من تردد الكنيسة فى اتخاذ الخطوة الأخيرة — احتراماً للكاتب العظيم — فقد لجأت أخيراً إلى إصدار قرار الحرمان ضد تولستوى . ذلك أن تولستوى وقد جاش إلى أعماق الوجود بدأ يزيل الأرض من تحت جميع الأسس التى قامت عليها الكنيسة والدولة والسلطان الزمنى . وسار تولستوى فى الطريق الذى كان لابد أن يؤدى به إلى أن يصبح ألد خصم للدولة ، وأعنف فوضوى خارج على الجماعة فى العصر الحديث ، شأنه فى ذلك شأن شيعة « والدو » وعصاة « ألبى » ومنكرى

التعميد [١] ودعاة الثورة الفلاحين ، وكل من حاول أن يرد المسيحية إلى أصلها الأول ، وأن يعيش طبقاً لنص الكتاب المقدس وحده . واجتمعت قوته وتصميمه وجلده وشجاعته فدفعته إلى مدى أبعد مما بلغه أشد المصلحين الدينيين تحمساً مثل لوثر وكالفن من ناحية ، كما دفعته فى الناحية الاجتماعية إلى مدى أبعد مما ذهب إليه أجرأ الفوضويين وهم شترنر [٢] ومدرسته . ولم يمض وقت طويل حتى وجدت المدينة الحديثة ووجد المجتمع المعاصر — مجتمع القرن التاسع عشر بكل ما فيه من عدالة وظلم — فى أعظم فنانى الأدب لذلك العصر خصما لا يفوقه خصم فى اللدد والخطورة . ولم يوجد

---

(١) شيعته « والدو » Waldensians فرقة ظهرت فى جنوب فرنسا فى القرن الثالث عشر ، أتباع « بيتر والدو » وهو تاجر غنى من أهل ليون باع أملاكه وأعطاها للفقراء . أنكروا حق السلطة المدنية فى توقيع عقوبة الإعدام كما أنكروا الكنيسة الرومانية وأجازوا أن يقوم بالطقوس الدينية رجل من غير رجال الكنيسة .

وعصاة ألبى Albigensians فرقة ظهرت فى جنوب فرنسا فى العصر نفسه ، خرجت على الكنيسة الرومانية ، وانتقدت فساد رجال الدين .

أما « منكرو التعميد » anabaptists (ومعناها الحرفى مكررو التعميد) ففرقة ظهرت فى ألمانيا على أثر حركة مارتن لوثر . أنكرت قيمة التعميد كما كانت تقوم به الكنيسة الرومانية ، لأن التعميد فى رأيهم لا يجوز إلا إذا كان المعمَّد مدركا (المترجم) .

(٢) ماكس شترنر (١٨٠٦ — ١٨٥٦) مفكر اشتراكى ألمانى ، أكد حرية الفرد وأن الإيمان بشىء من النظم خارجٍ عن الفرد إنما هو ضرب من الاعتقاد فى الخرافات ، وأن على الفرد أن يحدد واجباته ويكون سيد نفسه . (المترجم)

ناقد للمجتمع أشد تدميراً من الرجل الذى بنى لعصره أعظم بناء فنى .

على أن الكنيسة والدولة تعرفان خطر هؤلاء الفرديين المتعصبين ، وتعلمان أن التفكير النظرى مهما يكن نظرياً صرفاً فإنه يدخل بالتدريج فى حيز العمل ؛ وأعظم المصلحين أمانة وأعلاهم موهبة هم بالتحديد أولئك الذين يسببون أعظم ما يكون من الاضطراب على هذه الأرض . والكنيسة والدولة تعلمان أن المسيحية الأولى ترمى إلى مملكة سماوية لا إلى مملكة أرضية ، وأن من أوامرها ما هو من وجهة نظر الدولة هدام مناقض للحكومة ، لأن الأتقياء مطالبون بأن يضعوا المسيح فوق قيصر ؛ ومملكة السماء فوق مملكة الأرض ، ولا بد من ثمة أن يخالفوا عن واجبات الرعايا المخلصين ، وعن قانون الدولة وبنائها . ولكن تولستوى لم يدرك إلا شيئاً فشيئاً أية غاية من المشكلات سيبلغ ببحثه وتحسسه . فقد كان يظن أولا أنه إنما يحاول أن ينظم حياته الخاصة ، وأن ينال اطمئنان الروح بإخضاع موقفه الشخصى — جهد الطاقة — لأوامر الكتاب المقدس ؛ ولم يكن يرمى إلى أكثر من أن يعيش فى سلام مع الله وفى سلام مع نفسه . ولكن السؤال الأول : « ما الخلل الذى أصاب حياتى ؟ » نما إلى أن أصبح هذا السؤال العام : « ما الخلل الذى فى حياتنا جميعا » ؟

وبذا أصبح نقداً للعصر . وبدأ ينظر حوله فلاحظ أمراً لم يكن عسير الملاحظة ولا سيما فى روسيا تلك الأيام : لاحظ انعدام المساواة فى الأحوال الاجتماعية ، والتناقض بين الغنى والفقر ؛ وبين الترف والشظف ؛ ورأى من وراء أخطائه الخاصة الظلم العام الذى يمارسه أنداده من الطبقة العليا ، فجعل أول واجباته أن يناهض هذا الظلم بكل قوته . وهنا أيضاً بدأ يسير ببطء شديد ؛ وكان لابد أن يمضى الطريق بذلك الرجل الصارم ذى اللماحية العجيبة شوطاً طويلا ، ولكنه بدأ داعيا للخير ونصيراً للحرية قبل أن يغدو فوضوياً وثورياً قحاً بزمن طويل . وقد لمس المسألة الاجتماعية لأول مرة فى زيارة عابرة لموسكو سنة ١٨٨١ . وهو يصور هذا اللقاء الأول للبؤس الشامل فى مدينة كبيرة تصويراً مذهلا فى كتابه « ماذا يجب أن نعمل ؟ » ولا شك أن عينه اليقظة قد رأت الفقر ألف مرة من قبل فى أسفاره وجولاته ، ولكنه لم يكن إلا الفقر الفردى فى القرى والريف ، لا الفقر البروليتارى المركز فى المدن الصناعية ، الفقر كإنتاج للعصر ، إنتاج « آلى » لمدينة « آلية » . ووضع تولستوى موقفه من الكتاب المقدس فى حيز التطبيق ، فحاول أولا أن يقلل من الشقاء بالهبات والتبرع وتنظيم أعمال الخير ؛ ولكنه سرعان ما رأى ألا فائدة من أى عمل فردى ، و « أن المال وحده لا يمكن أن يجدى هنا فى تغيير

الحياة الرهيبة التى يحياها هؤلاء الناس » . وإنما يمكن إحداث تغيير حقيقى بإعادة بناء النظام الاجتماعي الحاضر كله من جديد . وهكذا يكتب نذيراً من نار على حائط الزمن : « إن بين الأغنياء والفقراء منا دائماً سوراً من التربية الخاطئة ، وقبل أن نستطيع مساعدة الفقراء يجب أن نهدم هذا السور . لقد وجدتنى مسوقاً إلى هذه النتيجة : أن ثروتنا هى السبب الحقيقى لشقاء العامة . » هناك خلل فى البناء الاجتماعى الحاضر ، هذا ما تبينه فى أعماق روحه ، ومنذ ذلك اليوم كان لتولستوى غرض واحد : أن يعلّم الناس ويحذرهم ويريهم حتى يعملوا بمحض إرادتهم على إصلاح هذه الحقيقة : حقيقة أن الناس مقسمون إلى طبقات منفصلة كل الانفصال عن بعضها البعض .

وينبغى أن يصدروا فى ذلك عن إرادتهم الحرة ، وعن بصيرة خلقية خالصة . وهنا يبدأ المذهب التولستوىّ . فإن تولستوى لم يكن يرمى إلى ثورة عنيفة ، بل إلى ثورة خلقية ، تحقق هذه التسوية فوراً ، فتجنب الإنسانية الثورة الأخرى الدموية . لقد أرادها ثورة مؤسسة على الضمير ، ثورة ناتجة عن تخلى الأثرياء عن ثرواتهم والمتبطلين عن بطالتهم طوعاً واختياراً ، وإعادة تقسيم العمل توا على المعنى الطبيعى الذى جعله الله : ألا يجور أحدٌ على عمل آخر ، وأن يكون لـكلٍّ مثلُ ما لغيره

من الحاجات . وأصبح منذ الآن يرى الترف زهرة سامة لذلك الحقول الذى يجب اقتلاعه كى يصبح الناس سواسية .

ومن هذا الاعتقاد بدأ تولستوى هجومه على الملكية بمرارة أشد مائة مرة مما هاجمها كارل ماركس وپرودون . « الممتلكات اليوم هى أصل الشرور جميعاً . فهى مصدر العذاب لأولئك الذين يملكون وأولئك الذين لا يملكون . ولا سبيل إلى تجنب الصدام بين من يملكون أكثر مما ينبغى ومن يعيشون فى فقر » . الشر كله أوله الملكية ، وما دامت الدولة معترفة بمبدأ الملكية فهى — فى نظر تولستوى — غير مسيحية وغير اجتماعية معاً ، وهى مشتركة فى الذنب ، بل أكبر شريك فيه (بما أن تولستوى يعتبر الملكية نوعاً من الدَّيْن) . « فالدول والحكومات تتآمر وتشن الحروب من أجل الملكية ، مرة طمعاً فى ضفاف الرين ، ومرة فى أراضى إفريقية ، ومرة فى الصين والبلقان ؛ ورجال المال والتجار ورجال الصناعة وملاك الأراضى يعملون ويدبرون الخطط ويعذبون أنفسهم وغيرهم للملكية ولا شىء غير الملكية . والموظفون يختصمون ويغشون ويظلمون ويعذبون أنفسهم كل ذلك من أجل الملكية وحدها . ومحاكمنا وشرطتنا تحمى الملكية . ومستعمرات النفى والسجون وكل الفظائع التى تنتسب إلى ما نسميه مكافحة الإجرام إنما تقوم لحماية الملكية » .

ففى رأى تولستوى إذن أن هناك مستلماً واحداً كبيراً للبضائع المسروقة ، يحمى كل ما فى مجتمع اليوم من مظالم ، وهذا المجرم هو الدولة . وعنده أنها لم تُخترع إلا لحماية الملكية ؛ فلهذا الغرض وحده أقامت نظامها المتشابك المبنى على القوة ، المجهز بالقوانين والمحققين والسجون والقضاة ورجال الشرطة والجيوش . ولكن أفظع مفاسد الدولة وأشدها كفراً فى اعتقاد تولستوى كان اختراعاً جديداً فى بلاده وهو التجنيد الإجبارى العام . فلم يكن ثمة حافز — فى نظره — للرجل المسيحى أن يخون وصايا المسيح وأوامر الأناجيل مثل خضوعه لأمر من الدولة يسمح بأن توضع فى يديه قهراً آلة من آلات الإجرام ليقتل رجلا غريباً عنه تماما من أجل شعار عابر : كالوطن أو الحرية أو الدولة . فليس لهذه الشعارات من غرض — هكذا ظل تولستوى يصرح — إلا حماية ممتلكات لا يملكها ، ورفع فكرة الملكية قهراً إلى قانون خلق سامٍ . وقد كتب تولستوى المئات بعد المئات من الصفحات ليؤكد هذا التناقض : أن ما يسمى بالمدنية (التى لم يكن يرى فيها إلا غطاء للانحلال الخلقى) قد صارت إلى حالة تسمح بإجبار الناس على ذبح بعضهم بعضاً بأمر من الدولة . وهذا مخالفة لأوامر الله ووحى الضمير ، إذ بها « يُدفع إنسان رغماً عنه إلى موقف ينفر منه وجدانه » .

وهكذا انتهى تولستوى الباحث عن الإنجيل الذى انقلب فوضويا متحمساً وبقى كذلك .. انتهى إلى أن واجب كل إنسان يرعى الخلُق فى بصيرة وذكاء أن يقاوم الدولة إذا تطلبت شيئا « لا يتفق مع المسيحية » ، وهو الخدمة العسكرية ، على ألا يكون ذلك بالقوة بل بالمقاومة السلبية ؛ وعليه فوق ذلك أن يتخلى عن كل نشاط يعتمد على استغلال عمل غيره . وعلى الرجال الشرفاء أن يفكروا ويعملوا لا بدافع وطنى بل بدافع إنسانى. ولا ينفك تولستوى يشير إلى الحق الأقدس للفرد فى أن يُعرِض عن أمورٍ بناء على يقينه الداخلى ولو كانت مباحة أو حتى مطلوبة قانونا ، وفى أن يعصى كل حكم للدولة لا يراه متفقاً مع الخلُق. ولهذا ينصح لكل مسيحى أن يتجنب التدابير والنظم جميعها بقدر استطاعته ، وألا يذهب إلى المحاكم ، ولا يقبل وظيفة من الوظائف ، ليظل نقى النفس . ولا ينفك تولستوى يشجع الفرد على ألا يخشع أمام « مبدأ القوة » الزائف المناقض للأخلاق ، وإن تَسَمَّى بقوة القانون والنظام ، لأن الدولة بشكلها الراهن هى المدافع والحامى ومنفذ الأحكام عن ظلم مستتر ؛ بل إن الجرائم الفوضوية التى يرتكبها الأفراد لا تبدو لتولستوى مَفْسَدة كنظم ذلك العدو الأكبر التى تبدو مُحكمة رامية إلى خير الإنسانية . « إن اللصوص والشُطّار والقتلة والنصابين مَثَلٌ لما يجب على المرء ألا يعمله ،

وهم يبعثون فى نفوس الناس استفظاعاً للجريمة ، ولكن الناس الذين يرتكبون أعمال السرقة والنهب والقتل والجلد ويذهبونها بمبرر دينى أو علمى أو تحررى ، أولئك الذين يرتكبون هذه الأعمال بوصفهم ملاكاً أو تجاراً أو رجال صناعة ، يزينون أعمالهم لغيرهم ، فلا يقتصر ضررهم على من يصيبه بل يشمل الألوف والملايين من الناس الذين تُدَمَّر خلقياتهم بتحطيم الفارق بين الخير والشر فى عقولهم . . . إن حكماً واحداً بالإعدام ينفذه رجال بعيدون عن تأثير العاطفة ، رجال متعلمون ناجحون فى حياتهم ، يشجعهم ويساعدهم قسيسون مسيحيون ، لأشد إفساداً للبشرية ونزولا بها إلى مرتبة الوحشية من مئات وألوف من جرائم القتل التى يرتكبها عمال غير متعلمين ، وهم فى سورة الغضب عادة ... وكل حرب حتى أقصرها أمداً ، بكل ما يصاحبها من خسائر وسرقات واستباحة للحرمات ونهب وقتل ، مع تبرير ذلك — فى زعمهم — بأنه ضرورة وعدل ، والثناء على الأعمال الحربية وتمجيدها ، والدعاء للعلَم والوطن ، والقلق المنافق على الجرحى لتفسد الناس فى عام واحد أكبر مما تفسدهم الملايين من جرائم السلب والإحراق العمد والقتل التى يرتكبها أفراد تحت سيطرة العاطفة على مدى مئات السنين . » أو بعبارة أخرى إن الدولة والنظام الاجتماعى الراهن هما المجرم الرئيسى والمسيخ الدجال حقا والصورة

المجسمة للشر ؛ وتولستوى يلطم وجهها بصيحته الصارمة : « امحوا هذا العار ! »

ولكن إذا كانت الدولة بوصفها جهاز المجتمع الإنسانى هى الشر مطلقاً ، وصورة المسيخ الدجال فى أعجب تنكر لها على الأرض ، فإن الواجب الطبيعى للرجل المسيحى فى نظر تولستوى هو أن ينأى بنفسه عن مطالب هذا الشبح الشيطانى ومغرياته جميعا . يجب على المسيحى الحر ألا يبالى بروسيا بوصفها دولة كما لا يبالى بفرنسا أو إنجلترا ؛ ويجب ألا يفكر فى أمم بل على أساس إنسانى عام . لقد ابتعد تولستوى بروحه عن الدولة كما ابتعد عن الكنيسة الأرثوذكسية ، معلناً : « إننى لا أستطيع الاعتراف بالدول ولا بالأمم ، ولا أن أشترك فى المنازعات التى تقوم بينها بالكتابة فى ذلك أو بخدمة دولة واحدة . إننى لا أستطيع المشاركة فى شىء يعتمد على الفرق بين الدول ، كالجمارك أو جباية الضرائب أو صناعة المتفجرات والأسلحة أو أى نوع من الاستعدادات الحربية ، » ويستطيع الرجل المسيحى ألا يحاول الحصول على منفعةٍ ما من مؤسسات الدولة ، وعليه ألا يسعى إلى الإثراء فى حمايتها أو بناء مستقبله بالحظوة لديها . وعليه ألا يذهب إلى المحكمة ولا يستعمل شيئاً من المنتجات الصناعية ولا يستخدم فى حياته شيئاً يأتى من عمل غيره . ويجب ألا يحرز مِلْكا ، ويحمل

به أن يتجنب التعامل بالنقود ، وألا يسافر بالقطار أو الدراجة ، وينبغى ألا يدلى بصوته فى انتخاب ولا أن يشغل وظيفة عامة أبداً . ويجب عليه ألا يقسم يمين الولاء للقيصر ولا لأية سلطة أخرى ، لأن طاعته لا تكون إلا لله وكلمته المنزلة فى الأناجيل . ويجب ألا يعترف بقاض سوى ضميره هو نفسه . ويجب على « الرجل المسيحى » بالمعنى الذى أراده تولستوى — والحق أنه يمكننا الاستعاضة عن هذه التسمية دائماً بقولنا « الفوضوى الكامل » — أن ينكر الدولة ، وأن يعيش عيشة تتفق مع الأخلاق خارج نطاق هذه المؤسسة المفسدة للأخلاق . وليس ثمة فارق يميزه عن الثورى السياسى الذى يكره الدولة بدلا من أن يتجاهلها سوى هذا الموقف السلبى الخالص ، الخالى من الثورة ، الذى يتقبل راضياً كل عذاب .

ومعنى ذلك أننا يجب ألا نغفل عن التضاد فى المبادئ بين تولستوى ولنين . فالتولستويّة ترفض كل مقاومة عنيفة للنظام الاجتماعى ، بنفس القوة والإصرار اللذين تدين بهما النظام الراهن للمجتمع ، لأن الثورة لابد لها أن تحارب الشر بشر آخر وهو العنف . « ولا يجوز أن نحارب الشيطان ببعلزبول »[1] . وتتبع

(١) اسم للشيطان ، ورد فى العهدين القديم والجديد . وفى سفر الملوك ١ ، الاصحاح الاول : بعلزبول اسم إله من آلهة الوثنيين ، أو أحد الطواغيت .

تعاليم تولستوى مبدأه الأسمى والأعمق : « لا تقاوموا الشر بالقوة » فتعد المقاومة الفردية المنفعلة هى الشكل الوحيد المقبول من أشكال الصراع ، بخلاف الطريق الثورى الفعال . فالرجل المسيحى يجب أن يتعذب ويتجرع كل ظلم ترتكبه الدولة فى حقه ، دون أن يؤدى به ذلك إلى الاعتراف بالدولة . ويجب ألا يستخدم القوة أبداً ليقاوم القوة ، لأن لجوءه هو نفسه إلى العنف معناه الاعتراف بالقوة ومبدأ الشر على أنهما جائزان . إن الثورى التولستوى لا يَضْرِب أبداً ، بل يدع نفسه يُضْرب ؛ ولا يحاول الحصول على مركز من مراكز القوة الخارجية ، ولكن لا يُزَحزَح بأى عنف عن موقفه الداخلى من عدم اللجوء إلى العنف . ويجب أن لا يستولى على « السلطة » أو « الدولة » بل ينبذهما على أنهما أمران لا يعنيانه ، ولا ينتمى إليهما فى داخل نفسه ، ولا يُمكن أحداً أن يجبره على إخضاع ضميره لهما .

وإذن فتولستوى يحدد الفرق واضحاً بين مقاومته الدينية لكل سلطان ، تلك المقاومة الشبيهة بالمسيحية الأولى ، وبين الصراع الطبقى الفعال القائم على الاحتراف . « عندما نقابل الثوريين نخطىء فى كثير من الأحيان فنحسب أننا نتفق وإياهم على بعض النقاط . فكلانا يصيح (لادولة ، لا مِلكية ، لاظلم) إلى كثير غير ذلك . ولكن هناك فرقاً كبيراً . فعند المسيحى لا وجود لدولة ما ، أما هؤلاء الناس

فإنهم يرغبون فى القضاء على الدولة. وعند المسيحى لاوجود للملكية أما هم فيريدون إلغاءها . وعند المسيحى كل الناس سواسية ، أما هم فيريدون القضاء على عدم المساواة . إن الثوريين يكافحون الدولة من الخارج ، أما المسيحية فلا تكافح مطلقاً ، بل تحطم أسس الدولة من الداخل . ».ولو أن ألوفاً متزايدة من الناس أبوا الخضوع بناء على اليقين الشخصى لكل منهم ، وفضلوا أن يُرْسَلوا إلى سيبريا ويجلدوا ويسجنوا ، لأثمرت انفعاليتهم البطولية — فى رأى تولستوى — أكثر مما يثمر تكتل الثوريين العنيف . ولهذا السبب وحده يمكن أن تصبح الثورة الدينية باتباع مبدأ المقاومة السلبية اتباعاً دقيقا — أخطر وأشد تدميراً للدولة على طول المدى من الانتفاضات والجمعيات السرية . لكى يمكن تغيير نظام العالم يجب تغيير الناس أنفسهم. أى أن ما يحلم به تولستوى هو ثورة من الداخل ، ثورة ضمير لا يتزعزع لكن يتقبل كل عذاب ، لا ثورة القبضة الحديدية ؛ ثورة نفوس لا ثورة أيد .

هذا « المبدأ المناهض للدولة » عند تولستوى — وهو يذكرنا بمقالة لوثر عن « حرية الرجل المسيحى » — مباشر وقوى إلى درجة عظيمة فى حد ذاته ، وإنما يظهر عيب هذا المذهب حين يحاول تولستوى أن يحول مطلبه فى حرية الاختيار إلى نظرية إيجابية فى الدولة . فالإنسان لا يعيش فى فراغ خارج عصره ، وحيث

يحتشد ملايين الأفراد على مستويات عدة ، وتتشابك المواهب والحروف فى الحياة العامة ، يلزم أن يقام تنظيم محدد للحياة ، حتى لو بترنا تلك الدولة المجرمة ؛ ومن ثم يجب أن يقام « حق » مناقض لذلك الباطل القديم ، خير مناقض للشر . وهنا نكتشف للمرة الألف فى تاريخ البشرية مبلغ الصعوبة فى بناء المجتمع بالقياس إلى نقده . فإن تولستوى لا يكاد يتحول من التشخيص إلى العلاج ، فيضع مقترحات لمجتمع إنسانى مستقبل أفضل ، بدلا من أن ينكر النظام الاجتماعى الحاضر ويدينه — لا يكاد يفعل ذلك حتى تصبح مفاهيمه سديمية وأفكاره مختلطة . فنى مكان بناء الدولة المستقر الموحد بسلطاته وقوانينه وأجهزته التنفيذية ، لا يوصى تولستوى بأكثر من « الحب » و « الأخوة » و « الإيمان » و « العيش فى المسيح » وسيلة للتأليف بين جميع المصالح المتضاربة ؛ وقد يدهشنا أن نسمع ذلك من رجل فتش كل غور من أغوار النفس الإنسانية كما لم يفعل أحد قبله تقريباً . فعند تولستوى أن الهوة الضخمة التى توجد اليوم بين الطبقات المالكة — أطفال الحضارة المدللين — وبين الطبقات الفقيرة لا يمكن عبورها إلا إذا نزلت الطبقات المالكة عن امتيازاتها طوعاً ، وكفت عن مطالبها المسرفة من الحياة . لينزل الرجل الغنى عن ثروته ، والمثقف عن كبريائه ؛ لينشئ الفنان خلقه غير قاصد إلا إفهام الجماهير ؛ ليعش

كل إنسان من عمل يديه فقط ، ولا يتلقَّ فى مقابله أكثر مما يحتاج إليه لهذه العيشة اليسيرة . هذه هى فكرة تولستوى الرئيسية : ألا تتم التسوية الاجتماعية من أسفل كما يريد الثوريون . بانتزاع كل ما يمتلكه الملاك ، بل من أعلى برضى تلقائى من الطبقات المالكة .

وكان تولستوى يدرك بوضوح أن مثل هذا النزول إلى أشكال العيشة البدائية الفلاحية سيحطم كثيراً من قيمنا الحضارية . ولكى يجعلنا أكثر استعداداً لقبول ذلك كتب رسالة عن الفن ، عاب فيها مبتدعات أعظم فنانينا ، حتى شكسبير وبيتهوفن ، لأنها لم تكن مفهومة للشعب كما ينبغى . فلم يكن يرى شيئاً أهم من القضاء على ذلك الفاصل المروع بين الفقراء والأغنياء ، الذى يسمم العالم اليوم . ففى رأيه أن تساوى الحاجات أو على الأصح بساطة الحاجات إذا ما عادت الوحدة بين الناس لم تستطع غرائز الحسد والكراهية أن تجد أهدافاً جديدة لتهاجمها ، فلا يحتاج الأمر إلى خلق سلطات خاصة واستخدام القوة للمحافظة عليها . وستبدأ مملكة الله الحقيقية على الأرض حالما تمحى جميع الأمجاد الاجتماعية والتبعيات الاجتماعية ويتعلم الناس مرة أخرى أن يكونوا مجتمعاً واحداً متآخياً .

ولقد كان لهذه الفكرة من الجاذبية فى بلاد اشتدت فيها

الفروق الاجتماعية وكان لتولستوى من التأثير فى زمنه ماجعل كثيراً من الناس يرغبون فى تحقيق الفكرة التولستوية الجديدة عن المجتمع تحقيقاً عمليا . ووجد فى بعض الأمكنة أناس حاولوا أن يختبروها بتأسيس مستعمرات على مبدأ عدم الملكية وعدم العنف . ولكن هذه المحاولات انتهت بالفشل الذريع ؛ ولم ينجح تولستوى فى إقامة مبادئ التولستوية الأساسية حتى فى منزله وأسرته . فقد جاهد سنوات ليحدث توافقاً بين حياته الخاصة ونظرياته ، فترك رياضة الصيد المحببة إليه حتى لا يقتل الحيوانات ، وتجنب استعمال السكة الحديدية ما استطاع ، وحول دخله من كتاباته إلى أسرته أو إلى أغراض الإحسان ، وأبى أن يأكل اللحم لأنه يستلزم قتل كائنات حية ، وكان يفلح الأرض بنفسه ، ويلبس معطفا خشناً مما يلبسه الفلاحون ، ويثبّت النعل فى حذائه بيديه .

ولكنه لم يستطع أن يتغلب على مقاومة الواقع لأفكاره ، ولا سيما فى أسرته ، بين أقرب الناس إليه وأعزهم عليه ؛ وهذه هى أعمق مأساة فى حياته . فتباعدت عنه زوجه ، ولم يستطع أبناؤه أن يفهموا لماذا يجب عليهم هم بالذات أن ينشئوا كالخلاّبات وأبناء الفلاحين من أجل نظريات أبيهم ؛ وتشاجر كتابه ومترجموه كالحوذية السكارى حول « ملكية » كتابات تولستوى . ولم يرَ إنسان واحدٌ ممن حوله فى حياة هذا الوثنى الرائع حياة

مسيحية حقة ، وعرف هو نفسه آخر الأمر ، كما يظهر من مذكراته ، أن ثقافته وكبرياءه كانتا تجعلانه أبعد من أى إنسان آخر عن تحقيق المثل الأعلى الذى دعا إليه بإصرار . وإنا لنهتز إذ نقرأ هذا السؤال فى مذكراته : « يا ليو تولستوى ! هل تعيش وفقاً لمبدئك ؟ » ثم الجواب المر : « لا . إننى أموت خجلا . إنى مذنب وخليق بالاحتقار » . وحين يشعر الشيخ ذو الثلاثة والثمانين عاماً باقتراب الموت يفر من منزله بليل ويموت فى محطة صغيرة للقطارات ، وحيداً مفجوعاً فى غرضه الأسمى .

وعلى أنه من التعقيبات الرخيصة أن نلاحظ باستعلاء استحالة تحقيق مذهب تولستوى الاجتماعى والدينى ، كاستحالة تحقيق جمهورية أفلاطون الطوبوية أو نظام جان جاك روسو الاجتماعى . ومن السهولة الصبيانية أيضاً أن نكتشف أن كتاباته النظرية قلما تلمع وتُقنع كما يلمع قَصصه ويقنع . وحسبنا أن نقارن (كما حاولنا أن نفعل فى هذه المختارات) حماسته الصارخة فى كتاباته النظرية بحكاية أو اثنتين من حكاياته الشعبية التى يعالج فيها الأفكار نفسها لنشعر بالفرق . فهو فى الحكايات الشعبية التى يمكن أن يُضم أروعها إلى الكتاب المقدس مع قصتى أيوب وراعوث ، موجز خلاّق بارع ؛ فى حين أن فلسفته كثيراً ما يغلب عليها عدم التماسك والتأكيد ، فوق ثقلها فى كثير من

الأحيان لما فيها من إدعاءات متعسّفة ، كأنما كان هو ، ليو تولستوى ، أول رجل فى ألف وثمانمائة وثمانين سنة يقرأ الأناجيل « كما ينبغى » ، وكأن أحداً قبله لم يفكر تفكيراً ناقداً فى مشكلات المجتمع البشرى . وكثيراً ما نشعر بالميل إلى أن نردد رجاء تورجنيف حين دعا تولستوى إلى التحول عن المقالات غير المتماسكة « ماذا يجب أن نعمل ؟ » و « مملكة الله فينا » وشروحه العقيمة للكتاب المقدس إلى عالم الخلق الفنى ، حيث لم يكن مجرد متأمل بين كثير من المتأملين بل الأستاذ الذى لا يبارى ، أعظم مصور لشعبه ، إن لم نقل لقرنه . على أننا نجور إذا أنكرنا الآثار القوية بل الحاسمة التى يدين بها العالم لنظرية تولستوى فى الحياة ؛ ومن المحقق أننا لا نبالغ إذا قلنا إن أحداً من المفكرين المعاصرين له لم يهز نفوس الملايين والملايين من الناس كما فعل ، حتى ولا كارل ماركس أو نيتشه ، وإن كانت تأثيراتهم مختلفة فى الاتجاه كل الاختلاف . فكما تفيض أنهار الفردوس من الوسط فى اتجاهات متضادة ، كانت أفكار تولستوى — وهذا هو الأمر العجيب — تُخصب أشد الحركات الفكرية تناحراً فى القرن العشرين . فقد لا يكون ثمة شىء أبعد عنه من البلشفية المنظمة ، التى تبدأ بطلب القضاء على عدوها (فى حين يطلب هو التصالح عن طريق الحب) ؛ والتى جعلت للدولة — طاغوت

تولستوى — سلطاناً لم يكن أحد يحلم به على الفرد ؛ والتى تؤكد بتركيزها للسطات جميعها ، وإلحادها ، وعزمها على إثارة الجماهير من سباتها ، عكس ما قاله تولستوى بالضبط فى « هكذا يجب أن تعيشوا » . ومع ذلك فلم يكن بين الثوريين الروس فى القرن التاسع عشر من مهد السبيل للنين وتروتسكى مثل هذا « الكونت » المناهض للثورة ، الذى كان أول من تحدى القيصر ، والذى خرج من الكنيسة تتعقبه لعنة المجمع المقدس ، والذى حطم كل سلطة قائمة بضربات مطرقة ، والذى طالب بالتصالح الاجتماعى على أنه الشرط الضرورى لعالم جديد أفضل . وكانت أعماله التى تصادرها الرقابة تنسخ باليد ، وتصل إلى مائة ألف قارئ ، فتذيع على الملأ مطالبة بإلغاء الملكية فى حين كان غلاة الاشتراكيين الثوريين لا يزالون قانعين بعلاجات وإصلاحات تحررية . فلم يكن لكتاب ولا لرجل مثل ما كان لتطرف تولستوى الفكرى من نصيب فى جعل روسيا متطرفة ، ولم يشجع أحد بنى وطنه كما شجعهم على ألا يحجموا عن عظيم من الأمر . وعلى الرغم من كل « مقاومته الداخلية » فإنه يستحق تمثالا فى الميدان الأحمر . فكما كان روسو أبا للثورة الفرنسية ، كذلك كان تولستوى (ربما على غير رغبة منه كهذا الفردى المتطرف الآخر تماما) هو « إرهاص » الثورة الروسية العالمية وسلفها الحقيق .

ولكن من العجيب أن مبدأه كان له فى الوقت نفسه تأثير مضاد تماما فى ملايين أخرى من الناس . ففى الطرف الآخر من الدنيا ، فى الهند ، تلقى غاندى غير المسيحى رسالة المسيحية الأولى من تعاليم تولستوى . وبينما استحوذ الروس على خصلة التطرف فى هذه التعاليم ، أخذ غاندى مبدأ عدم المقاومة وكان أول من نظم أسلوب المقاومة السلبية مع قومه الذين يبلغون ثلاثمائة مليون . وقد استخدم فى هذا الصراع أيضاً سائر الأسلحة غير الدموية التى أوصى بها تولستوى على أنها الأسلحة الوحيدة المقبولة : هجر الصناعة ، العمل المنزلى ، كسب الاستقلال الداخلى والسياسى باختصار الحاجات الخارجية إلى الحد الأقصى . وإذن فقد اعتنق مئات الملايين ، بعضهم فى ثورة روسيا الإيجابية وبعضهم فى ثورة الهند السلبية ، أفكار هذا الثورى الرجعى أو هذا الرجعى الثائر — وإن فعلوا ذلك بطريقة كان صاحب هذه الأفكار جديراً بأن يستفظعها أو ينكرها .

على أن الأفكار ليس لها فى ذاتها اتجاه ما ؛ وإنما تُدفع كالشراع أمام الريح حين يمسك بها الزمن . الأفكار فى ذاتها ليست إلا قوى محرِّكة ، تنتج الحركة دون أن تعرف هدف هذه الحركة وهذا الهياج . ولا عبرة بكون أفكار تولستوى عرضة للنقد فى جانب كبير منها ؛ فما دامت قد صنعت التاريخ — ولا شك

فى ذلك — على نطاق عالمى ، فستحتل كتاباته النظرية مكانها دائماً بين أهم مكوِّنات عصرنا الفكرية والاجتماعية . بل إنها لا تزال إلى اليوم قادرة على أن تعطى القارئ الفرد الشىء الكثير . فالمكافح من أجل السلم والتفاهم الهادئ بين الناس لن يجد مثل هذه « الترسانة » الفنية المنظمة من الأسلحة ضد الحرب . والرجل الذى يثور ضميره على ما شاع اليوم من تأليه الدولة على أنها الغرض السليم الوحيد من تفكيرنا وجهدنا ، والذى يرفض أن يشارك فى هذه العبادة التى تقوم على التضحية الكاملة ، حرى أن يستمد قوة عجيبة من هذا الخارج على دين الوطنية كله . وكل رجل دولة وكل دارس لعلم الاجتماع سيكتشفان نظراً بعيداً متنبئاً بالمستقبل فى نقده الأساسى لعصرنا ؛ وكل فنان لابد أن تلهمه قدوة هذا الشاعر العظيم ، الذى عذب روحه حتى يفكر لغيره ، ويحارب الظلم على الأرض بقوة كلماته . وإنها لسعادة عظيمة أن تستطيع النظر إلى فنان عملاق على أنه قدوة خلقية أيضاً ، رجل لم يستعل بشهرته ، بل جعل نفسه خادم الإنسانية ، ولم يخضع — فى صراعه لبلوغ خلقية جديدة — إلا لسلطة واحدة من بين جميع سلطات الأرض : ضميره الذى لا يمكن أن يتطرق إليه الفساد .



اختار ستيفان تسفايج لباب تفكير تولستوى ونظمه من الأعمال الآتية :

اعترافى

مملكة الله فينا

الحرب والسلام

نيكولاى پالكين

ثلاثة أمثال

الملك أسرحدون

ما به حياة الناس [1]

---

(١) اختارت سلسلة The Living Thougts Library فى طبعتها الإنجليزيه ترجمة Nathan Haskell Dole لتنقل منها هذه المختارات . وقد نقلنا عنها الترجمة العربية ، وراجعنا القطعه المختارة من « اعترافى » على ترجمة Aylmer Maude فى سلسلة The World's Classics . (المترجم)

أعمال

ليو نيكولايفتش تولستوى

(١٨٢٨–١٩١٠)

الطفولة (١٨٥٢) ، الصبا (١٨٥٤)

الشباب (١٨٥٥ — ١٨٥٧) ثلاث ميتات (١٨٥٩)

القوزاق (١٨٦٣)

الحرب والسلام (١٨٦٤ — ١٨٦٩)

أنا كارنينا (١٨٧٣ — ١٨٧٧)

اعترافى (١٨٧٩ — ١٨٨٢)

مابه حياة الناس ، وقصص أخرى (١٨٨١)

سلطان الظلام (١٨٨٥)

أنشودة كرويتزر (١٨٩٠)

مملكة الله فينا (١٨٩٣)

ما هو الفن ؟ (١٨٩٨)

البعث (١٨٩٩)

العبودية فى عصرنا ، وفصول أخرى (١٨٩٩)

سبيل تولستوى

إلى ذاته الباطنة *

لقد عُمِّدت ونُشِّئت على الدين المسيحى الأرثوذكسى ؛ وعلمته فى طفولتى وصباى وشبابى . ولكننى حين تركت الجامعة فى السنة الثانية ، وأنا فى سن الثامنة عشرة ، كنت قد نبذت الاعتقاد بكل ما عُلِّمته .

اختفى لدى الاعتقاد الذى أشربته منذ الصغر ، اختفى تدريجيا كما هو الشأن عند الكثيرين ، ولكن مع هذا الفارق : وهو أن ابتدائى فى قراءة الفلسفة منذ سن الخامسة عشرة جعلنى واعياً بكفرى . فتركت الصلاة منذ سن السادسة عشرة ، وانقطعت عن شهود الصلوات الكنسية وعن الصوم بناءً على اقتناع . ولم أعد أدين بإيمان طفولتى ، ولكننى كنت أعتقد فى شىء ما ، وإن لم أستطع توضيحه بالضبط . كنت أومن بإله — أو على الأصح لم أكن أنكر وجود إله — ولكن أى إله ؟ ذلك ما لم أكن أستطيع بيانه ؛ ولم أنكر المسيح ولا تعاليمه ، ولكننى

(*) من « اعتراف » .

لم أكن لأستطيع أن أقول مم كانت تتألف هذه التعاليم .

وحين أفكر الآن فى ذلك الزمن ، أرى بوضوح أن كل ما كان لدى من إيمان ، أن الاعتقاد الوحيد الذى سيطر على حياتى إذا نحينا جانباً الغريزة الحيوانية الصرفة ، هو الاعتقاد بإمكان الكمال ، وإن لم أستطع معرفة ما هو فى ذاته ، ولا ماذا عسى أن تكون نتائجه .

حاولت أن أبلغ الكمال الذهنى ؛ فوسعت دراساتى فى كل اتجاه أتاحته لى الحياة ؛ وحاولت أن أقوى إرادتى ، بأن اصطنعت لى قواعد ألزمت نفسى باتباعها ؛ وبذلت غاية جهدى فى تنمية قواى الجثمانية بكل تمرين قصد به أن يكسب القوة والمرونة ، وبتعويد نفسى طول الاحتمال ؛ وأخذت نفسى متطوعاً بكثير من الشدائد وألوان من الحرمان . وكنت أرى ذلك كله ضرورياً للحصول على الكمال الذى كنت أنشده .

وطبيعى أن الكمال الخلقى كان يبدو لى ، أول الأمر ، هو الغاية العليا . ولكننى لم ألبث أن وجدتنى أتطلع — عوضاً عن ذلك — إلى مثل أعلى من الكمال العام . أو بعبارة أخرى رغبت أن أحسُن لا فى عينى ولا فى عين الله بل فى أعين الناس . ثم لم يلبث هذا السعى إلى أن أحسُن فى أعين الناس حتى تحول إلى شىء

آخر : الرغبة فى أن أكون أقوى من غيرى ، أن أحرز نصيباً أكبر من الشهرة ، ومن الظهور فى المجتمع ، ومن الثراء .

وقد أروى قصة حياتى فيما بعد ، وأبسط تفصيل الحوادث التى أثرت فى عواطفى وأفكارى عندما كنت شابا . وأحسب أن كثيرين وكثيرين قد عانوا مثل ما عانيته . كنت أرغب من كل نفسى أن أكون خيّراً ؛ ولكنى كنت شابا ، تحدونى نوازع قوية ، وكنت وحيداً منقطعاً فى بحثى عن الخير ، فكنت كلما حاولت أن أعبر عما يتوق إليه قلبى من أن أكون ذا خلق خير لقيت الاحتقار والاستهزاء ، فإذا ما خليت السبيل لشهواتى الوضيعة وجدت الثناء والتشجيع .

كان الطموح وحب السلطان وحب الكسب وشهوة الجسد والكبرياء والغضب والانتقام تحتَلّ أعلى مكان من الاحترام .

ولما خلّيت السبيل لهذه الشهوات أصبحت مثل من يكبروننى، وشعرت بأنهم راضون عنى . وكانت لى عمة شفيقة ، امرأة طيبة حقاً ، كنت أعيش معها ، وقد اعتادت هذه العمة أن تقول لى إن هناك شيئاً واحداً تتمناه لى فوق كل شىء : غرام مع امرأة متزوجة ، « فلا شىء ينضج الشاب مثل علاقة مع امرأة كاملة » . وكان من بين أمنياتهـــا لسعادتى أن أصبح ياوراً ، وحبذا

لو أكون ياوراً للإمبراطور ؛ وكان الحظ الأوفى عندها أن أوفق إلى عروس غنية ، تكون بائنتها التى تأتينى بها أكبر عدد ممكن من الرقيق .

ولا أستطيع الآن أن أتذكر تلك الأيام دون أن يعترونى شعور أليم من النفور والاشمئزاز .

لقد قتلت الرجال فى الحرب ، وبارزت لأذبح آخرين ، وخسرت فى لعب الورق ، وأضعت أموالى التى انتزعتها من عرق الفلاحين ، وعاقبت هؤلاء بقسوة ، وعربدت وخدعت الرجال . كذب ، وسرقة ، وفساد خلقى من كل نوع ، وسكر واعتداء ، وقتل . . . لم تكن ثمة جريمة لم أقترفها ، ومع ذلك فإن أندادى ظلوا يعتبروننى رجلا حسن الأخلاق بالقياس إلى غيرى .

تلك كانت حياتى مدى عشر سنين .

وفى تلك الأثناء بدأت أكتب ، يحدونى الغرور وحب الكسب والكبرياء . وسرت كاتباً على النهج الذى اخترته إنساناً . فلكى أنال الشهرة والمال اللذين أكتب من أجلهما ، كنت مضطراً أن أخفى ما كان خيراً وأقول ما كان شراً . وهذا ما فعلته . وما أكثر ما قدحت ذهنى وأنا أكتب لأخفى تحت قناع من عدم

المبالاة أو الهزل تلك المشاعر التى كانت تؤلف حقيقة تفكير حياتى من الحنين إلى شىء أفضل . وقد نجحت فى هذا أيضاً ، وكسبت حمداً .

"وعندما بلغت السادسة والعشرين قدمت إلى بطرسبرج ، وقد انتهت الحرب ، ولقيت كتاب العصر ، واستقبلت بترحاب حار ، وملق كثير .

وما هى إلا أن أصبحت المزاعم الشائعة بين كتاب الطبقة التى انتميت إليها ونظراتهم إلى الحياة هى مزاعمى ونظراتى ، ووضعت حداً نهائياً لجميع جهودى السابقة نحو حياة أفضل . وخضعت هذه الآراء لحياتى المتحللة فأمدتنى بنظرية تبررها .

كانت النظرة إلى الحياة التى يأخذ بها زملائى الكتاب هى أن الحياة تطور ، وأن الدور الرئيسى فى هذا التطور نلعبه نحن المفكرين ، وأن أصحاب التأثير الأكبر من بين المفكرين هم — مرة أخرى — نحن الفنانين والشعراء . فرسالتنا هى تعليم الناس .

ولتجنب الإجابة عن هذا السؤال الطبيعى جداً ، وهو : ماذا « أعرف ، وماذا يمكننى أن أعلم ؟ » جعلت النظرية المذكورة

متضمنة لقاعدة هى أنه لا يلزم معرفة ذلك ، ولكن الفنان والشاعر يعلّمان بطريقة غير واعية .

وكنت أنا أعد نفسى فناناً شاعراً مبدعا ، ولهذا كان طبيعياً جداً أن أعتنق هذه النظرية . أنا الفنان الشاعر كنت أكتب وأعلّم ما لا أعلمه . وكنت أنال على هذا العمل مالا ، وكانت لى مائدة فاخرة ، ومنزل فخم ، ونساء ، ومجتمع ؛ وكانت لى شهرة . وكان طبيعياً أن ما أعلّمه حسن جداً .

وعندما أفكر الآن فى ذلك الزمن ، وأتذكر حالتى العقلية وحالة هؤلاء الناس (وهى حالة لا تزال شائعة إلى حد كبير بين الألوف) تبدو لى حقيرة مفزعة مضحكة ؛ إنها تثير المشاعر التى تستحوذ علينا حين نمر داخل مستشفى مجاذيب .

كنا مقتنعين جميعاً آنذاك أننا ينبغى أن نتكلم ونكتب ونطبع أكثر ما نستطيع ، بأسرع ما نستطيع ، وأن خير البشرية متوقف على هذا . وكان الآلاف منا يكتبون ويطبعون ويعلّمون ، وهم خلال ذلك يسفه بعضهم بعضاً ويسب بعضهم بعضاً . وغفلنا تماماً عن أننا لا نعلّم شيئاً نحن أنفسنا ، ولا نجد جواباً عن أيسر مشكلات الحياة — ما الخير وما الشر — فمضينا نتكلم معاً ولا أحد يسمع ، وأحياناً يشجع بعضنا بعضاً ويثنى بعضنا

على بعض ، بشرط أن نتلقى تشجيعاً بتشجيع وثناءً بثناء ، ثم نعود فننقلب بعضنا على بعض فى حنق . باختصار كنا نعيد تمثيل مناظر مستشفى المجاذيب .

وكان ألوف العمال يشتغلون ليل نهار ، باذلين أقصى جهدهم فى صف الحروف وطبع ملايين الكلمات لينشرها البريد فى أنحاء روسيا ، ونحن نعلِّم ، ولا نشبع من تعليم ، ومع ذلك نجأر بالشكوى من أن الناس لا يحسنون الاستماع إلينا .

حالة غريبة بلا شك ، ولكننى أستطيع فهمها الآن . فقد كان الدافع الحقيقى وراء كل تفكيرنا هو الرغبة فى المال والمديح ، ولم نكن نعرف طريقاً للحصول عليهما سوى كتابة الكتب والصحف ، وهذا ما كنا نعمله . ولكننا لنتشبث بالاعتقاد أننا أناس ذوو شأن عظيم فى حين أننا نشغل بهذه الأعمال غير الطائلة ، كان ضروريا أن نبرر وجودنا لأنفسنا بطريقة أخرى . وهذه هى النظرية التى اعتنقناها :

كل ما هو كائن فهو حق ؛ وكل ما هو كائن فمنشؤه التطور ؛ والتطور يأتى من المدنية ؛ ومقياس المدنية هو انتشار الكتب والصحف ؛ ونحن نؤجر ونحترم للكتب، والصحف التى نكتبها ؛ فنحن إذن أنفع الناس وأفضلهم !

ولو أجمعنا أمرنا لجزمنا بهذه الحجج ؛ ولكن لما كان كل رأى يبديه أحدنا يظهر له على الفور نقيض يقابله على خط مستقيم ، فقد اضطررنا أن نتردد قبل التسليم بها . إلا أننا لم ننتبه إلى ذلك ؛ ومضينا نتسلم النقود ، ونتلقى المديح من الفريق الذى ننتمى إليه ، ومن ثم فقد كان كل واحد منا يرى أنه على حق .

لقد وضح لى الآن أنه لم يكن ثمة فارق بيننا وبين سكان مستشفى المجاذيب : أما فى ذلك الزمن فلم أكن أشعر بهذا إلا شعوراً مبهما ، وكنت ككل المجانين أحسب أن الجميع مجانين إلا إياى ...

عشت هذه العيشة التى لا معنى لها ست سنين إلى وقت زواجى . وفى أثناء ذلك ذهبت إلى الخارج . وأكدت معيشتى فى أوربا ومعرفتى بكثير من الأجانب البارزين المتقدمين فى العلم والثقافة إيمانى بمبدأ إمكان الكمال العام ، فقد وجدت النظرية نفسها سائدة بينهم . وأخذ هذا الاعتقاد الشكل الشائع بين معظم المثقفين فى أيامنا . وكان يُعبَّر عنه بكلمة « التقدم » . خلت آنذاك أن لهذه الكلمة معنى حقيقياً . ولم أفهم أنى حين أجيب عن هذا السؤال الذى يعذبنى كما يعذب كل إنسان : « كيف أحيا حياة أفضل ؟ » بأنى يجب أن أعيش من أجل التقدم ، لم أكن إلا مردداً لإجابة الرجل الذى تحمل زورقه الأمواجُ والرياح حين يجيب

عن السؤال الهام الوحيد الذى يواجهه : « أين ينبغى أن نتجه ؟ » بقوله : « إننا نُحمل إلى مكانٍ ما » .

لم أكن أرى ذلك وقتئذٍ ؛ إلا أن مشاعرى — لاعقلى — كانت تثور أحيانا على خرافة عصرنا الشائعة ،التى تقود الناس إلى الجهل بجهلهم للحياة .

ففى أثناء إقامتى فى باريس ، كَشَفَ لى تنفيذٌ علىّ لحكم الإعدام عن ضعف اعتقادى الخرافى فى التقدم . فعندما رأيت الرأس مفصولا عن الجسد ، وسمعت صوت سقوطهما منفصلين فى الصندوق ، فهمت — لا بعقلى ، بل بكيانى كله — أن أية نظرية عن حكمة الأشياء المقررة جميعها ، أو عن التقدم ، لا يمكن أن تبرر مثل هذا العمل ؛ وأنه إذا كان أهل الأرض جميعاً منذ بدء الخليقة قد وجدوا هذا الشيء ضروريا ، مهما تكن نظريتهم فى ذلك ، فقد كنت أعلم أنه غير ضرورى ، وأنه شر ، وإذن فيجب ألا أحكم على ماهو ضرورى وخير بما يقوله الناس ويفعلونه ، أو بالتقدم ، بل بما أشعر فى قلبى أنه حق .

ولما عدت من الخارج أقمت فى الريف ، واشتغلت بتنظيم المدارس للفلاحين ، وقبلت وظيفة قاضى تحكيم [1] ، وأخذت

---

(١) وظيفة شرفية أنشئت فى روسيا عقب تحرير الرقيق (سنه ١٨٦١) ، ومهمة صاحبها التوفيق بين الملاك والفلاحين . (المترجم)

أعلمَ الشعب غير المتعلم فى المدارس ، والطبقات المتعلمة فى الصحيفة التى بدأت أصدرها . وبدا كأن الأمور تسير سيراً حسناً ، ولكنى شعرت بأن عقلى لم يكن فى حالة عادية ، وبأنى مقبل على تحول . ولقد كان من الممكن أن أصل فى ذلك الوقت نفسه إلى حالة اليأس التى بلغتها بعد خمسة عشر عاماً لولا تجربة جديدة فى حياتى لوّحت لى بالأمان ، وأعنى الحياة الزوجية .

شغلت عاماً بقضايا التحكيم ، وبالمدارس ، وبصحيفتى ، واضطرب أمرى حتى عييت به ؛ فقد كان التحكيم شاقاً علىّ ، ونشاطى فى المدارس غير ظاهر الجدوى ، وحركتى فى الصحيفة بغيضة إلى نفسى ، إذ كانت تقوم على شىء واحد وهو الرغبة فى أن أعلِّم الناس جميعاً وأنا أخفى جهلى كيف أعلم أو ماذا أعلم . فمرضت ، وكان مرضى نفسياً أكثر مما كان جسميا ، وتركت كل شىء ، وذهبت إلى مراعى « البشكير » لأستنشق الهواء النقى وأشرب « الكوميس » [1] وأعيش عيشة حيوانية صرفة .

وبعد عودتى تزوجت . وصرفتنى الأحوال الجديدة لحياة أسرية سعيدة صرفاً تاماً عن البحث وراء معنى للحياة بأجمعها . وكانت حياتى عندئذ مركزة فى أسرتى ، فى زوجتى وأطفالى ،

---

(١) شراب مخمَّر يشربه التتر ، ويصنعونه من لبن الفرس . (المترجم)

وتبعاً لذلك فى العناية بزيادة وسائل الحياة . وبعد أن شغل السعىُ نحو التقدم العام مكان الجهد لتحقيق كمالى الفردى ، عدت فحولته ثانية إلى جهد لتحقيق السعادة لأسرتى بالذات .

وعلى هذا النحو مرت خمسة عشر عاماً . وعلّمت فى كتاباتى ما كان هو الحقيقة الوحيدة عندى : أن غاية الحياة ينبغى أن تكون السعادة الكبرى لنا ولأسرتنا .

هكذا عشت ؛ ولكن حالة عقلية غريبة بدأت تستحوذ على منذ خمس سنين . كانت تمر بى لحظات من الحيرة ، وكأن الحياة قد توقفت ؛ وكأنى لا أدرى كيف يمكن أن أعيش ، ولا ماذا يمكن أن أفعل . وبدأت أشعر بالضياع والاكتئاب . ولكن هذه الحالة مرت ، وعدت أعيش كما كنت أعيش . ثم بدأت فترات الحيرة تعاودنى من جديد ، وكثرت ، واتخذت شكلا واحداً فى جميع الأحيان ، فكانت تتمثل لى دائماً فى هذين السؤالين : لماذا ؟ وإلى أين ؟

وكان يبدو لى أول الأمر أن هذين السؤالين لا هدف لهما ولا معنى ؛ وكان يبدو لى أن كل ما يسألان عنه معروف حق المعرفة ، وما دمت أستطيع أن أجيب عنهما فى أى وقت أشاء دون صعوبة كبيرة ، فلا حاجة لأن أزعج نفسى بهذا الأمر

فى الحال ، وسوف أجد الجواب متى فرغت للتفكير فيهما . ولكن هذين السؤالين ازدادا مثولا لذهنى ، وإلحاحاً فى طلب الجواب ، وتجمعا كنقطتين فى بقعة كبيرة سوداء .

وحدث لى ما يحدث فى كل مرض باطنى مهلك : تظهر أولا أعراض توعك يسيرة يهملها المريض ، ثم تتكرر هذه الأعراض بانتظام متزايد ، حتى تستحيل ألماً متصلا . وتشتد الآلام ، وإذا المريض مواجَهٌ بأن ما حسبه وعكة قد أصبح أهم لديه من كل شىء آخر على الأرض ، إنه الموت !

وهذا هو ما حدث لى بالضبط . وأدركت أن الأمر لم يكن وعكة طارئة بل شيئاً خطيراً جداً ، وأن هذين السؤالين إذا استمرا يترددان فعلىّ أن أجد جواباً عنهما . وقد حاولت أن أجيب عنهما . وكان السؤالان يبدوان أبلهين ساذجين صبيانيين ، ولكنى لم أكد أعكف عليهما وأحاول أن أنتهى إلى قرار فيهما حتى اقتنعت بأمرين : الأول أنهما لم يكونا صبيانيين ولا فارغين ؛ بل كانا يتناولان أعمق مشكلات الحياة ؛ والثانى أنى لم أكن قادراً على الوصول إلى قرار فيهما مهما كددت ذهنى فى المحاولة .

وقبل أن أشغل نفسى بضيعتى فى « سمارا » ، وبتربية ولدى ، وبكتابة الكتب ، كان يجب أن أعلم لماذا أعمل هذه الأشياء .

وما دمت لا أعلم «لماذا؟» فلن أستطيع أن أعمل شيئاً، ولن أستطيع أن أعيش. فبينما كنت أفكر في إدارة منزلي وضيعتي — وكان ذلك يشغل الكثير من وقتي في تلك الأيام — كان يقوم في رأسي فجأة هذا السؤال:

«حسنا حسنا، قد أصبحت مالكاً لستة آلاف دسياتينا[1] في حكومة سمارا، وثلثمائة رأس من الخيل، ولكن ماذا بعد ذلك؟»

فأجزع وتضطرب أفكاري. وقد أكون مشغولا بالتفكير في أمر تربية أبنائي، فأسأل نفسي: «لماذا؟» وتارة أكون عاكفاً على البحث في خير الوسائل لتحسين أحوال الفلاحين، وإذا أنا أسأل نفسي: «لكنْ ماشأني بهم؟» وربما فكرت في الشهرة التي أنالها من كتبي فأقول لنفسي:

«حسنا، فلأكن أشهر من جوجول أو پوشكين أو شكسبير أو موليير، أو من جميع كتاب العالم، فماذا بعد ذلك؟»

ولم أكن أجد جواباً. ولم تكن تلك الأسئلة لتحتمل انتظارا، كان لابد لها من جواب سريع، وكان من المستحيل أن أعيش إن لم أستطع الجواب عنها. ولكن لم يكن ثمة جواب.

---

(١) الدسياتينا تساوى $٢\frac{٣}{٤}$ فدان تقريبا. (المترجم)

وشعرت بأن الأرض التى آقف عليها تنهار ، وبأنى لا أجد ما أستند إليه ، وبأن ماعشت من أجله لم يكن شيئا ، وبأن ليس ثمة ما يدعونى للحياة . . .

لقد انتهت حياتى إلى جمود . كنت أستطيع أن أتنفس وآكل وأشرب وأنام ، ولم يكن لى بد من التنفس والأكل والشرب والنوم ؛ ولكننى عَدِمت الحياة الحقيقية لأنى لم أجد رغبة واحدة أشعر بأن تحقيقها متفق مع العقل . كنت إذا رغبت فى شىء أعرف سلفاً أنى إن حققت الرغبة أو لم أحققها فلن يكون لذلك أثرٌ ما . ولو ظهر لى جنىٌّ وقال لى لبيك لما عرفت ماذا أقول . وإذا شعرت فى لحظات النشوة بشىء لا أسميه رغبة بل عادة خلّفتها الرغبات القديمة — فقد كنت أعلم فى أوقات الهدوء أنه كان وهماً ، وأنى فى الحقيقة لا أرغب فى شىء ما . بل إننى لم أكن أرغب حتى فى معرفة الحقيقة ، لأنى كنت أحدس محتواها .

كانت الحقيقة أن الحياة لا معنى لها . كأنما كان كل يوم من أيام الحياة وكل خطوة من خطواتها يقربنى من الهاوية ، فأرى بجلاء أنه ليس أمامى إلا الهلاك . وكان الوقوف مستحيلا ، وكان الرجوع مستحيلا ، وكان مستحيلاً أن أغمض عينىّ كى لا أرى أنه لا شىء أمامى إلا العذاب والموت الزؤام والبوار التام .

وهكذا انتهيت أنا الرجل السليم السعيد إلى الشعور بأنى لا أستطيعُ الاستمرار فى الحياة . كانت قوة لا تقاوم تدفعنى إلى التخلص من الحياة بطريقةٍ ما ، ولست أعنى أننى « رغبت » أن أقتل نفسى ، فقد كانت القوة التى تجذبنى بعيداً عن الحياة أقوى وأكمل وأرحب من كل رغبة . . كانت قوة أشبه بقوة تعلق السابق بالحياة ، إلا أنها تسير فى اتجاه مضاد . كنت أجاهد بكل قوتى للابتعاد عن الحياة . وكانت فكرة الانتحار تخطر لى كشىء طبيعى ، مثلما كنت أفكر من قبل فى تحسين حياتى . وبلغ من إغراء هذه الفكرة لى أنى اضطررت إلى مخادعة نفسى حتى لا أعجل بتنفيذها . وما كانت رغبتى عن التعجل إلا لأنى أردت أن أستخدم كل قواى فى جلاء أفكارى ؛ فإن لم أستطع جلاءها فالانتحار ميسور فى كل وقت . ومن ثم كنتَ ترانى — أنا الرجل المجدود — أخفى عن نفسى حبلاً خشية أن أعلق نفسى به فى عارضة مخدعى ، حيث كنت أخلع ملابسى وحيداً كل مساء ؛ وكففت عن الخروج للصيد ببندقية لأنها كانت تهيئ لى طريقاً سهلا للتخلص من الحياة . لم أكن أعرف ماذا أريد : كنت خائفاً من الحياة ، وكنت أجاهد للابتعاد عنها ، ولكننى لم أزل آمل فى شىء منها .

كانت هذه هى الحال التى وصلت إليها بينما كل ما يحيط بى يُحسَب من كمال الحظ . فلم أكن قد بلغت الخمسين ، وكانت لى زوجة صالحة تحبنى وأحبها ، وأبناء نجباء ، وضيعة واسعة تنمو وتتقدم دون جهد كبير منى . وقد ازداد احترام أصدقائى ومعارفى لى أكثر من ذى قبل ، ونلت ثناء الآخرين ، وكان فى وسعى أن أزعم — دون كثير من خداع النفس — أنى أصبحت ذا اسم مشهور . ثم إنى لم أكن مجنوناً ولا مختلط العقل ، بل على العكس كنت على حظ من قوة العقل والجسم قلما وجدت نظيرها فى الرجال الذين يشبهوننى فى الطبقة أو المنازع ، فكنت أستطيع أن أجارى فلاحاً فى الحصاد ، وأن أستمر فى عمل عقلى ثمانى ساعات أو عشر ساعات متصلة دون أن يكون لهذا الجهد عاقبة وخيمة . وبينما أنا كذلك وجدتنى لا أستطيع أن أعيش ، واضطررت من خوف الموت أن أحتال على نفسى حتى لا أضع حداً لحياتى ...

وكنت خائفاً مما ينتظرنى ، وكنت أعلم أن هذا الخوف أشد مما أنا فيه ، ولكن لا أستطيع أن أنتظر النهاية فى صبر . ومهما وجدت من إقناع فى المجادلة بأنه لا بد على كل حال أن

يتمزق عرق فى قلبي أو ينفجر شيء ما وينتهى الأمر ، فإنى لم أستطع أن أنتظر النهاية صابرا . كان الخوف من الظلام أعظم من أن أحتمله ، وكنت أتوق إلى الخلاص منه كأسرع ما أستطيع بحبل أو رصاصة . كان هذا هو الشعور الذى اجتذبنى بأعظم قوة إلى التفكير فى الانتحار ...

سألت نفسى : « أم ترانى غفلت عن شيء ما ، أو أخطأت فهم شيء ما ؟ فما يجوز أن تكون هذه الحالة من اليأس طبيعية للإنسان ! »

وبحثت فى كل فرع من فروع المعرفة الإنسانية عن شرح للأسئلة التى عذبتنى : بحثت عن ذلك الشرح بحثاً أليماً طويلا ، لم أكن أنشده لطرافة المعرفة ولا أبحث عنه فى تراخٍ ، بل كنت أبحث بعناءٍ وعناد ، ليل نهار . كنت أبحث عنه كما يبحث الرجل الهالك عن النجاة ، ولا أجد شيئا .

بحثت عنه فى كل فروع المعرفة ، ولم أعجز فحسب ، بل اقتنعت أن كل من بحثوا مثلى خرجوا بغير طائل كما خرجت ؛ ولم يخرجوا بغير طائل فحسب ، بل انتهوا كما انتهيت إلى الإقرار العاجز بأن المعرفة المطلقة الوحيدة التى يستطيعها الإنسان هى هذه : أن الحياة لا معنى لها .

طرقت كل سبيل . وبفضل حياة أنفقت فى الدرس ، وبفضل اتصالى بأهل العلم ، كان فى مقدورى الرجوع إلى أكبر الأساتذة فى شتى فروع المعرفة . ولم يضنوا علىّ بفتح جميع ينابيع المعرفة فى الكتب وفى أحاديثهم الشخصية . فعرفت كل ما يمكن أن يجيب به العلم عن هذا السؤال : « ما الحياة ؟ » . . .

وضللت طريقى فى غابة المعرفة الإنسانية . فى ضوء العلوم الرياضية والتجريبية التى فتحت لى آفاقاً مشرقة إلا أنها لا سكن فيها ، وفى ظلام الفلسفة الذى كنت أزداد غوصاً فى دياجيره كلما تقدمت خطوة ، إلى أن اقتنعت آخيراً أنه ليس ثمة مخرج ، ولا يمكن أن يكون .

* * *

رأيت أنى حين اتبعت ما بدا لى أنه نور العلم المشرق ، لم أزد على أن حولت وجهى عن السؤال الحقيقى . فمهما يكن فى الآفاق التى تفتحت أمامى من فتنة وصفاء ، ومهما يكن فى الغوص فى تلك العلوم التى لا حدود لها من إغراء ، فقد رأيت أنها كلما ازدادت وضوحا بعدت عن أن تسد حاجتى ، وتجيب عن سؤالى .

وكذلك لم تعجز جولاتى فى ميادين المعرفة عن شفاء يأسى فحسب ، بل زادته تفاقما . فكان أحد فروع المعرفة لا يجيب عن مشكلة الحياة جواباً ما ، وكان فرع آخر يجيب إجابة مباشرة تؤكد يأسى ، وتثبت أن الحالة التى وصلت إليها لم تكن نتيجة ضلال أو جنة ، وأنى كنت أفكر تفكيراً صحيحا ، وأنى طابقتُ النتائج التى وصلت إليها أقوى العقول البشرية .

لم أستطع أن أخدع نفسى . كل شيء باطل . سعيدٌ من لم يولد . الموت خير من الحياة . والحياة عبء يجب أن يطرحه المرء عن كاهله .

كنت فى موقف مروِّع . كنت أعلم أنى لن أحصل من المعرفة التى منحها العقل للإنسان إلا على إنكار الحياة . ولن أحصل من الإيمان إلا على إنكار العقل ، وهو أشد تعذراً علىّ من إنكار الحياة . فقد ثبت من المعرفة المؤسسة على العقل أن الحياة شر والناس يعلمونها كذلك ، وأن للناس أن يكفوا عن الحياة إن شاءوا ولكنهم قد عاشوا وما زالوا يعيشون — وأنا نفسى مازلت أعيش وإن كنت قد عرفت منذ زمن بعيد أن الحياة لا معنى لها وأنها شر . فإن تبعت الإيمان وجدت أن فهم معنى الحياة يقتضى إنكار عقلى ، وهو هو ذلك الجزء منى الذى كان يطلب معنى للحياة ! . . .

وعندما وصلت إلى هذه النتيجة أدركت أن من العبث أن ألتمس جواب سؤالى فى المعرفة القائمة على العقل ، وأن الجواب الذى يعطيه هذا النوع من المعرفة ليس إلا إشارة إلى أن الحصول على الجواب غير ممكن إلا أن يوضع السؤال فى صورة أخرى ، بحيث يكون شاملاً للعلاقة بين المحدود واللا محدود . وكذلك أدركت أنه مهما تكن الأجوبة التى يقدمها الإيمان شاذة ومخالفة للعقل فإن لها هذه الفضيلة ، وهى أنها تُدخل فى كل سؤال العلاقة بين المحدود واللا محدود ، وبغير ذلك لا يمكن أن يكون جواب .

فمهما وضعت السؤال كانت هذه العلاقة تظهر فى الجواب : كيف أحيا ؟ — على شريعة الله . ما الغاية الحقيقية من حياتى ؟ — العذاب الأبدى أو النعيم الأبدى . أى معنى فى الحياة لا يمكن أن يمحوه الموت ؟ — الاتحاد بالله الدائم الفردوس .

وكذلك اضطررت أن أعترف بأن مع المعرفة العقلية التى كنت من قبل أحسبها المعرفة الحقيقية الوحيدة ، هناك فى كل إنسان حى نوعاً آخر من المعرفة : نوعا غير عقلى ، هو الإيمان الذى يجعل الحياة ممكنة . . .

أصبحت مستعداً لأن أتقبل أى إيمان لا يقتضى منى إنكار

العقل إنكاراً مباشرا ، لأن ذلك يكون تزييفاً . فدرست البوذية والإسلام فى كتبهما ، ودرست المسيحية بوجه خاص ، فى كتبها وفى حياة أهلها الذين أعيش بين ظهرانيهم .

وكان طبيعياً أن أتجه أولا إلى المؤمنين الذين هم ألصق بى : إلى العلماء ورجال الدين والرهبان ، وإلى الأتقياء الذين اعتنقوا مذهباً جديداً وسموا بالمسيحيين الجـــدد ، وأقاموا دعوتهم على الخلاص عن طريق الإيمان بمخلّص . اتجهت إلى هؤلاء المؤمنين وسألتهم عما يؤمنون به ، وعما يجعل للحياة معنى فى نظرهم .

ولم تكن المجادلة لتقنعنى بصدق إيمان هؤلاء الناس . ما كنت لأقتنع إلا بالأعمال التى تثبت أن نظرتهم إلى الحياة قد محت من نفوسهم خوف الفقر والمرض والموت الذى أجده رهيباً فى نفسى . ولم أجد مثل هذه الأعمال بين شتى المؤمنين المحيطين بى . بل على العكس ، كنت أجد هذه الأعمال عند أشد الناس المحيطين بى إلحاداً ، ولا أجدها أبداً عند من يدعون بالمؤمنين .

فعرفت أن إيمـان هؤلاء الناس ليس هو الإيمان الذى أبحث عنه ، وأنه ليس بإيمان ألبتة بل هو نوع من العزاء الأبيقورى . وعرفت أن هذا الإيمان إن لم يكن فيه عزاء حقيقى فقد يصلح على الأقل تسلية لسليمان نادم على فراش موته ، ولـكنه لا يصلح

للسواد الأعظم من البشر الذين يولدون لا ليستمتعوا بجهد غيرهم بل ليخلقوا حياة لأنفسهم . كان لابد لهذه الألوف من الملايين من فهم آخر للإيمان — فهم صادق للإيمان ؛ حتى تعيش البشرية — حتى تستمر البشرية فى الحياة وتفهم معنى حياتها . وكذلك لم تكن حقيقة أن سليمان وشوبنهور وإياى لم نقتل أنفسنا هى التى أقنعتنى بوجود الإيمان ، بل حقيقة أن هذه الألوف من الملايين قد عاشت وما زالت تعيش ، حاملة معها على تيار حياتها سليمان وإيانا .

فبدأت أقترب من المؤمنين فى الشعب الفقير الساذج الأمى : من الحجاج والرهبان والأنصار والفلاحين . وكان هؤلاء العوام يؤمنون بالمسيحية كأولئك الذين كانوا يدعون بالمؤمنين فى طبقتى . وكانت حقائق المسيحية مختلطة عندهم أيضاً بكثير من الخرافات ، ولكن مع هذا الفارق : وهو أن خرافات المؤمنين فى طبقتنا ليست بذات ضرورة لهم ، ولا تأثير لها فى حياتهم إلا باعتبارها نوعا من التسلية الأبيقورية ؛ فى حين أن خرافات الطبقة العاملة المؤمنة متشابكة مع نسيج حياتهم إلى حد يستحيل معه تصورهم بدونها . فهى شرط ضرورى لحياتهم . كانت كل حياة المؤمنين فى طبقتنا متناقضة تناقضاً تاماً مع إيمانهم ، وكانت كل حياة المؤمنين من الشعب مؤكدة لمعنى الحياة الذى منحهم إياه إيمانهم .

وكذلك بدأت أدرس حياة الشعب ومعتقداته . وكلما ازددت

تأملا ازداد يقيني بأن فيهم إيماناً حقيقياً ، وأن إيمانهم أمر ضروري لهم ، وأنه هو وحده الذي يجعل لحياتهم معنى ، ويجعل في إمكانهم أن يحيوها . ورأيت فيهم نقيض ما رأيته في طبقتنا ، حيث يستطيع المرء أن يحيا بلا إيمان ، وحيث لايتخذ شعار الإيمان إلا واحد من ألف ، فإنني لم أجد بين الشعب ملحداً واحداً في الألف . ورأيت فيهم نقيض ما رأيته في طبقتنا ، حيث تمضي الحياة كلها في كسل ولهو وضجر ؛ فقد رأيت حياة الشعب كلها تمضي في كدح شاق ورضا قانع . ورأيت فيهم نقيض ما رأيت في طبقتنا من تمرد على القدر وشكوى منه لما يجدونه من حرمان وآلام ؛ فقد رأيت الشعب يتقبل المرض والحزن بلا تذمر ، في إيمان هادئ راسخ بأن ذلك كله يجب أن يكون ولا يمكن أن يكون غيره ، وأن ذلك كله خير . ورأيت أولئك القوم على النقيض منا نحن الذين نزداد بعداً عن فهم معنى الحياة كلما ازددنا حكمة ، ولا نرى في عذابنا وموتنا إلا سخرية خبيثة ؛ فإنهم يعيشون ويتعذبون ويدنون من الموت مطمئنين بل سعداء في معظم الأحيان . وبينما تعد الميتة الهادئة التي لافزع فيها ولا يأس استثناء نادراً في طبقتنا ، فإن أندر استثناء بين الشعب هو الميتة القلقة الثائرة الحزينة .

هؤلاء القوم الذين حرموا من كل مايعد عندنا وعند سليمان الخير الأوحد في الحياة ، والذين يتمتعون مع ذلك بالسعادة

العظمى ، هم السواد الأعظم من البشر : نظرت حولى نظرة أوسع ، ودرست حياة الكتل البشرية فى الماضى والحاضر ، ورأيت أن الذين فهموا معنى الحياة بحيث استطاعوا أن يعيشوا وأن يموتوا لم يكونوا اثنين ولا ثلاثة ولا عشرة بل مئات وألوفاً وملايين . كل هؤلاء القوم على اختلاف عاداتهم وقواهم العقلية وتعليمهم ومكانتهم كانوا على النقيض من جهالتى يعرفون معنى الحياة والموت حق المعرفة . يكدحون فى هدوء ، ويصبرون على الحرمان والعذاب ، ويعيشون ويموتون ، ولا يرون ذلك باطلا بل خيراً .

وتعلمت أن أحب هؤلاء الناس : وكلما ازددت معرفة بحياتهم ، بأحيائهم وموتاهم الذين قرأت عنهم وسمعت بهم ، ازددت حباً لهم ، وسهل على أن أحيا كما يحيون . وكذلك عشت قرابة عامين ، وتم فى نفسى تغير ظل يعتمل فيها طويلا ، وكنت أحس إرهاصاته دائماً . فلم تصبح الحياة فى بيئتى الغنية المتعلمة منفرة لى فحسب ، بل فقدت كل معنى . وبدا لى كل مالدينا من أعمال وأفكار ، من علم وفن ، فى ضوء جديد . عرفت أن ذلك كله عبث أطفال ، وأن من المحال العثور على معنى فيه . بينما رأيت حياة الشعب الكادح ، حياة البشرية جمعاء ، حياة الذين يخلقون الحياة — رأيتها فى قيمتها الحقيقية . فعرفت أن هذه هى الحياة بعينها ، وأن المعنى الذى يعطى لهذه الحياة حق ، فقبلته ...

وحين تذكرت كيف كنت أنفر من هذه المبادىء وأراها عديمة المعنى إذ يعلنها أناس يمضون فى سيرتهم على نقيضها ، وكيف اجتذبتنى هذه المبادىء وبدت لى حكيمة حين رأيت أناساً يحيون طبقاً لها ، عرفت لماذا رفضتها من قبل وظننتها خلواً من المعنى ، ولماذا اعتنقتها الآن ورأيتها حافلة بالمعنى . وعرفت أنى كنت مخطئاً . وكيف كنت مخطئاً فلم أكن مخطئاً لأنى فكرت تفكيراً غير صحيح بقدر ما كنت مخطئاً لأنى عشت حياة غير صحيحة . وعرفت أن الحق لم يكن محجوباً عنى لضلال عقلى بقدر ما كان محجوباً عنى لأنى عشت حياتى فى ظروف شاذة من الإشباع الأبيقورى لشهوات الجسد . وعرفت أن سؤالى : « ما حياتى؟ » وجوابه : « أنها شر » كانا متفقين مع الحقيقة ، وإنما كان الخطأ فى أنى سحبت على الحياة عامة جواباً كان يخص حياتى وحدها . لقد سألت نفسى ماحياتى ، وتلقيت الجواب أنها شر وسخافة . وكذلك كانت حياتى المتهالكة على الملذات سخافة وشراً ، ومن ثم كان الجواب «الحياة سخافة وشر» متعلقاً بحياتى أنا لا بالحياة البشرية على العموم .

وعرفت الحق الذى وجدته بعد ذلك فى الإنجيل :

« وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة . لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور ولا يأتى إلى النور لئلا توَبَّخ أعماله » .

عرفت أن فهم معنى الحياة يقضى أولا ألا تكون الحياة شريرة خالية من المعنى . وأن يأتى نور العقل بعد ذلك لفهمها . وعرفت لماذا ظللت أدور طويلا حول الحقيقة البديهية دون أن أدركها ، وأننا إذا أردنا أن نفكر فى حياة البشرية وتتكلم عنها فيجب أن نفكر فى هذه الحياة ونتكلم عنها جمعاء لا عن حياة بعض الطفيليات التى تعيش عليها .

كانت هذه الحقيقة دائماً حقيقة كما أن مضروب اثنين فى اثنين يساوى أربعة ، ولكنى لم أقبلها لأن تسليمى بأن مضروب اثنين فى اثنين يساوى أربعة لابد أن يستتبع التسليم بأنى شرير . وقد كان الشعور بأنى خيِّر أهم لدىّ وألزم لى من التصديق بأن مضروب اثنين فى اثنين يساوى أربعة . وتعلمت أن أحب الأخيار وكرهت نفسى واعترفت بالحقيقة . وتبين لى كل شىء . . .

لقد ساعدنى إدراكى لخطأ المعرفة العقلية على أن أتخلص من إغراء المنطق الفارغ . وأدى بى يقينى أن معرفة الحقيقة لا يمكن أن تنال إلا بالحياة ، إلى الشك فى استقامة حياتى . ولكنْ كان يجب أن أخرج من إسار تفردى وأنظر حولى إلى الحياة الساذجة التى يحياها الشعب العامل لأعرف أن هذه الحياة هى وحدها الحياة الحقيقية . وعرفت أنى إذا أردت أن أفهم الحياة ومعناها فيجب ألا أحيا حياة طفيلية بل حياة حقيقية ، وأن أقبل المعنى الذى

أعطته لها البشرية الحقيقية وأندمج فى حياتهم لأمحص ذلك المعنى .

وهذا ماحدث لى فى الوقت الذى أتكلم عنه :

طوال ذلك العام الذى كنت أسائل نفسى فيه ، كل لحظة تقريبا ، أيجمل بى أم لايجمل أن أنهى الأمر كله بحبل أو مسدس ؛ وبينما كان عقلى مشغولا بالأفكار التى وصفتها — كان يثقل قلبى شعور مؤلم لا أستطيع أن أصفه إلا بأنه بحث عن الله .

لم يكن هذا البحث عن الله عملا عقليًا بل شعورًا . وأقول هذا عن بينة لأنه كان مضاداً لطريقتى فى التفكير ؛ لقد كان يأتى من القلب . كان شعوراً بالخوف أو اليتم ، بالوحدة بين عالم غريب ، والأمل فى عونٍ لا أدرى مصدره .

وأذكر يوماً فى مستهل الربيع ، وكنت وحيدًا فى الغابة أصغى لأصواتها ، ولا أفكر إلا فى شىء واحد هو بعينه مالم يبرح فكرى طوال عامين . كنت لاأزال أبحث عن الله .

ودار فى نفسى هذا الحوار : « حسناً ، ليس ثمة إله . ليس ثمة إله له حقيقة خارج خيالى ، إله حقيقى مثل حياتى نفسها . ليس ثمة هذا الإله . ولا شىء يمكن أن يثبت وجوده ، ولا معجزة ، لأن المعجزات لا توجد إلا فى خيالى الذى ينكره العقل » .

ثم سألت نفسي : « ولكن من أين جاءت فكرتي عن الله الذي أبحث عنه ؟ » .

وعند هذه الفكرة انتعشت مرة أخرى أمواج الحياة الجذلانة وبدأ كل ما حولي يصحو ويكتسب معنى جديداً . ولكن فرحي لم يدم طويلا . فقد مضى العقل في عمله :

« إن فكرة الله ليست الله . الفكرة هي ما يجري في باطن نفسي ، وفكرة الله هي فكرة أستطيع أن أوقظها في نفسي أو لا أوقظها كما أشاء ، إنها ليست ما أبحث عنه ، ليست الشيء الذي بدونه لا يمكن أن تكون الحياة . » .

وهنا بدا كأن كل شيء يموت من حولي وفي باطني مرة أخرى ، ووددت مرة أخرى لو أقتل نفسي .

وبعد ذلك بدأت أستعيد ما جرى في باطني : الهمود والصحو اللذين تكررا مائة مرة . وتذكرت أني لم أكن أحيا إلا حين أومن بالله . وكما كان من قبل فهذا ما يكون الآن : عليّ أن أعرف الله فأحيا ، عليّ أن أنساه أو لا أومن به فأموت .

ماذا كان هذا الهمود والصحو ؟ أنا لا أحيا حين أفقد الإيمان بوجود إله ، ولولا أمل غامض في أن أجده لقتلت نفسي منذ أمد بعيد . أنا لا أحيا إلا حين أشعر به وأبحث عنه ، وكأنما صرخ صوت

فى باطنى : « وماذا تطلب من مزيد ؟ هذا هو الذى لا حياة بدونه . سواء أن تعرف الله وأن تحيا . فالله هو الحياة . »

عش باحثاً عن الله ، فلن تحيا بدون الله ، وصحت الحياة فى باطنى ومن حولى أقوى من كل مرة . ولم يهجرنى النور الذى أضاء لى عند ذاك ، لم يهجرنى بعد ذلك قط .



نقد تولستوى لعصره *

حياة الإنسان كلها نقض مستمر لما يعلم أنه واجبه . وهذا التناقض يسيطر على جميع نواحى الحياة ، اقتصادية كانت أو سياسية أو دولية . وكأنما نُسى ذكاؤه وكسف إيمانه — إذ لا بد له من إيمان وإلا لم يكن لحياته دوام — فهو يتصرف على عكس ما يمليه ضميره وبصيرته .

فنحن فى علاقاتنا الاقتصادية والدولية نسترشد بالمبادىء الأساسية للعصور الخالية ، وهى مبادىء مناقضة كل المناقضة لاتجاهنا العقلى وظروف حياتنا الحاضرة .

كان الإنسان الذى يؤمن بفطرة العبودية وضرورتها يرى من الصواب أن يعيش فى علاقة السيد بعبيده . ولكن هل هذه الحياة ممكنة فى هذه الأيام ؟ قد يؤمن إنسان العصر القديم أنه محق إذ يستغل أخاه الإنسان ويظلمه على مدى الأجيال ، لا لشىء إلا أنه يؤمن باختلاف الأصل ، فنبيل أو حقير ، منسوب إلى حام أو يافث . فليس يقتصر الأمر على أن أعظم فيلسوفين فى العصور

(*) من « مملكة الله » .

القديمة، معلمى البشرية أفلاطون وأرسطو ، قد بررا وجود العبودية ونسقا البراهين على شرعيتها ؛ بل إن من وصفوا الحالة المثالية للمجتمع منذ فترة لا تتجاوز ثلاثة قرون لم يستطيعوا أن يصوروه بغير عبيد .

وفى العصور القديمة بل فى العصور الوسطى أيضاً كان الرأى الذى لا يتهم : أن الناس لم يولدوا أكفاء ، وأن الناس الجديرين بالاحترام هم الفرس وحدهم، أو الإغريق وحدهم أو الرومان وحدهم ، أو الفرنسيون وحدهم . ولكن لا أحد يصدق ذلك الآن . ولا يستطيع المدافعون المتحمسون عن مبادئ الأرستقراطية والوطنية فى أيامنا هذه أن يؤمنوا بما يقولون .

وكلنا نعلم — ولا مفر لنا من أن نعلم ، وإن كنا لم نسمع القضية محددة قط ، ولا حاولنا أن نحددها بأنفسنا — أن فى أعماق قلوبنا جميعا يقينا راسخا بصدق المبدأ الأساسى فى المسيحية القائل بأننا جميعا أبناء أب واحد ، أجل ، كل واحد منا ، حيثما نعش ، ومهما تكن اللغة التى نتكلمها ؛ أننا جميعا إخوة لا نخضع إلا لقانون الحب الذى غرسه فى قلوبنا أبونا جميعا .

ومهما تكن العادات العقلية للرجل المعاصر أو درجة تعليمه ، سواء أكان لبراليا مثقفا على أى لون من ألوان الرأى ، أم فيلسوفا على أى مذهب من المذاهب ، أم اقتصاديا من أية مدرسة من شتى

المدارس ، أم تابعا غير متعلم لأية عقيدة دينية ؛ فكل إنسان في هذه الأيام يعلم أن الناس جميعا متساوون فى الحقوق فى أمور الحياة ومتاع الدنيا ، فلا أحد أفضل من سائر البشر ولا أقل منهم ، ولكن الناس جميعا ولدوا أحرارا متساوين . وكل إنسان يؤمن بهذه الحقيقة يقينا غريزيا ، ولكنه يجد أبناء جنسه مقسمين طبقتين ، إحداهما فى فقر ومتربة تكدح وتقاسى الظلم ، والأخرى فارغة مستبدة مترفة . وهو لا يرى هذا كله فحسب ، بل إنه كذلك يندرج فى أحد القسمين شاء أم لم يشأ — وتلك خطة ينفر منها عقله . ومن ثم فهو معذب لا محالة لشعوره بالظلم من ناحية ، ومشاركته فيه من ناحية أخرى .

وسواء أكان الإنسان فى هذه الأيام سيداً أم عبداً فهو محاصر أبداً بذلك التنافر المحزن بين مثله الأعلى وبين الحقيقة الواقعة ، وليس فى مقدوره أن يتجاهل الآلام التى تنتج من ذلك .

وجماهير الشعب — أى السواد الأعظم من البشرية ، الذين يتعذبون ويكدحون فى حياة راكدة كالحة ، لا ينعشها شعاع من نور ، متحملين ما لا يحصى من ألوان الحرمان — هؤلاء هم أوضح الناس إدراكا للتناقض الشديد بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون ، بين أقوال البشر وأفعالهم .

فهم يعلمون أنهم يعملون كالعبيد ، ويموتون فى عوز وظلام ، ليوفروا للأقلية ملذاتها . وهذا الشعور هو الذى يضاعف مرارتهم ، بل هو أصل عذابهم .

كان العبد فى العصور القديمة يعلم أنه ولد عبداً ، أما العامل فى أيامنا هذه فيشعر أنه عبد ويعلم أنه ينبغى ألا يكونه ، ويتعذب عذاب « تنتالوس » [1] لشوقه إلى ما يمكن أن يُعطى له ، بل إلى ماهو حقه فى الواقع . ويتضاعف عذاب الطبقات العاملة الناشئ من تناقضات نصيبهم عشرة أضعاف بالحسد والحقد اللذين هما الثمرتان الطبيعيتان للشعور بهذه التناقضات .

والعامل فى عصرنا وإن كان عمله أقل إرهاقاً من جهد العبد القديم ، وإن نجح فى الحصول على ثمانى ساعات ليوم العمل واثنى عشر بنساً ونصف بنس لأجر اليوم ، لا يزال مظلوماً لأنه يصنع أشياء لن يستمتع بها أبدا ؛ فهو لا يعمل لنفسه ، بل يعمل ليمتع المترفين الذين لايعملون ، ليضاعف ثروة الرأسمالى أو صاحب المصنع أو المنتج . وهو يعلم أن ذلك كله يجرى فى عالم يعترف

---

(١) ملك من ملوك الأساطير عند اليونان . أفشى أسرار الآلهة فعذب فى الجحيم بأن يبقى مغموراً فى الماء إلى ذقنه وعناقيد الفاكهة متدلية أمامه ، فإذا انحنى ليشرب ابتعد الماء عنه ، وإذا مد يده ليتناول الفاكهة فرت من قبضته ... [المترجم] .

أهلوه جميعا بمبادئ كالمبدأ الاقتصادى القائل بأن العمل ثروة ، وأن من الظلم استخدام جهدٍ آخرَ ليجنى المرء فائدة لنفسه ، وأن العمل غير المشروع يعاقب عليه القانون ؛ بل فى عالم يقول بمبدأ المسيح الذى يعلمنا أن الناس جميعا إخوة ، وأن واجب الإنسان أن يكون عوناً لجاره ولا يستغله استغلالا ظالما .

هو يدرك كل هذا ، فلا بد أن يحز فى نفسه الألم للتناقض المذهل بين العالم كما ينبغى أن يكون وبين العالم كما هو . يقول العامل لنفسه : « إن صح ما يُقال لى وما أسمع الناس يعلنونه فيجب أن أكون إنساناً حراً مساوياً لأى إنسان آخر ومحبوباً من الناس ؛ وهأنذا عبد مكروه محتقر . » ثم يمتلىء كراهية هو بدوره ، ويحاول الخلاص من حالته ، بأن يصرع العدو الذى يظلمه ، وينتزع السلطان لنفسه .

يقولون : « ينبغى للعامل ألا يطمح إلى مكان الرأسمالى ، ولا للرجل الفقير أن يحسد الغنى . » ولكن هذا زور . فلو كنا فى عالم جعل الله فيه سادة وعبيداً ، أغنياء وفقراء ، لما كان للعامل أو الفقير أن يتمنى حظ الغنى . ولكن الأمر على خلاف ذلك ، فهو يتمناه فى عالم يقول بتعليم المسيح ، الذى يتمثل أول مبادئه فى العلاقة بين الابن والأب ، ومن ثم فى الإخاء والمساواة .

ولا يستطيع الناس — وإن لم يسارعوا إلى الإقرار بذلك — أن ينكروا أن الحب شرط من الشروط الأولى للحياة المسيحية ، الحب الذى لا تعبر عنه الكلمات بل الأفعال .

والرجل المتعلم أشد ألماً لهذه المتناقضات . فإن كان يؤمن بشىء ما فلعله يؤمن بالإخاء — أو على الأقل بعاطفة الإنسانية ؛ وإلا فبالعدالة ، وإلا فبالعلم لا محالة . وهو لا يستطيع أن يتجاهل على كل حال أن ظروف حياته مناقضة لكل مبدأ من مبادئ المسيحية والإنسانية والعدالة والعلم .

هو يعلم أن عادات الحياة التى نشأ عليها والتى يكلفه التخلى عنها شيئاً من العناء لا يمكن أن تعتمد إلا على الجهد المضنى — بل المهلك أحيانا — من الطبقة العاملة المضطهدة ، أى على خرق مبادئ المسيحية والإنسانية والعدالة والعلم أيضا (علم السياسة) التى يزعم أنه يؤمن بها . وهو يؤكد إيمانه بمبادئ الإخاء والإنسانية والعدالة وعلم السياسة ومع ذلك فإن اضطهاد الطبقة العاملة عنصر لا غنى عنه فى حياته اليومية ، وهو لا ينى يستخدمه لتحقيق أغراضه على الرغم من مبادئه وهو لا يكتفى بأن يعيش على هذا النمط بل يوجه كل طاقاته نحو المحافظة على نظام يناقض كل ما يؤمن به مناقضة تامة .

نحن إخوة ؛ ولكن أخى أو أختى يؤدى لى أحقر الأعمال كل صباح . نحن إخوة ؛ ولكنى لا أستغنى عن سيجارى فى الصباح ، أو عن سكّرى ، أو عن مرآتى ، أو ماشئت من أشياء كثيراً مايكلف صنعها إخوتى أو أخواتى صحتهم ، ولكن ذلك لا يدعونى إلى الامتناع عن هذه الأشياء ؛ بل على العكس إنى أطالب بها . نحن إخوة ؛ ومع ذلك فأنا أعول نفسى بالعمل فى مصرف أو مؤسسة تجارية أو متجر ، وأحاول دائماً أن أرفع ثمن ضروريات الحياة لإخوتى وأخواتى . نحن إخوة ، ومع ذلك فأنا أقبض مرتباً على محاكمة اللص أو المومس وإدانتهما وعقابهما ، فى حين أن وجودهما نتيجة طبيعية لنظام الحياة الذى أعيش عليه ، وفى حين أعلم أنى لاينبغى أن أدين ولا أن أعاقب . نحن جميعاً إخوة ؛ ومع ذلك فأنا أكسب عيشى بجباية الضرائب من الفقراء ، حتى يعيش الأغنياء فى ترف وفراغ . نحن إخوة ؛ ومع ذلك فأنا أقبض مرتباً للدعوة إلى تعليم يسمى زوراً بالتعليم المسيحى ، ولا أومن به أنا نفسى ، وبذلك أمنع الناس من اكتشاف التعليم الحقيقى ؛ إنى أقبض مرتباً بوصفى قسيساً أو أسقفاً لأخدع الناس فى أمر ذى أهمية حيوية لهم . نحن إخوة ؛ ومع ذلك فأنا أجعل أخى يدفع لى أجراً لقاء كل خدمة أقدمها إليه ، سواء أكنت أكتب له كتباً ، أم أعلمه ، أم أصف له دواء . نحن جميعاً إخوة ؛ ولكننى أقبض

مرتباً على إعداد نفسى لأكون قاتلا ، على تعلم فن الحرب ، أو على صناعة الأسلحة والذخائر أو بناء القلاع .

إن معيشة طبقاتنا العليا متناقضة كلها تناقضاً تاماً ، وعلى قدر حساسية الإنسان يتألم لهذا الاعوجاج .

فالرجل ذو الضمير الحساس لا يمكنه أن يتمتع براحة بال فى مثل هذه الحياة . ولئن نجح فى خنق صرخات ضميره ، إنه لن ينجح فى التغلب على مخاوفه .

فأولئك الرجال والنساء فى الطبقات السائدة ، الذين قست قلوبهم ، واستطاعوا إسكات ضمائرهم ، ليسوا بمنجاة من العذاب لخوفهم من البغضاء التى أثاروها . فهم عالمون حق العلم بوجودها بين الطبقات العاملة ، عالمون أنها لا يمكن أن تموت ، عالمون أن العمال يدركون ما يمارس معهم من خداع ، وما يُحمل عليهم من مظالم ؛ وأنهم قد بدءوا ينظمون أنفسهم ليلقوا بالنير عن كواهلهم ، وينتقموا من ظالميهم . إن سعادة الطبقات العليا مسممة بالخوف من الكارثة المحدقة ، التى تبدو نذرها فى النقابات والإضرابات ومظاهرات أول مايو . وإذ يدركون الكارثة التى تهددهم يتحول خوفهم إلى تحدٍّ وكره . فهم يعلمون أنهم إن تهاونوا لحظة فى هذا الصراع مع المضطهدين فهم ضائعون ، لأن عبيدهم الحاقدين

يزدادون حقداً مع كل يوم من أيام الاضطهاد . وقد يرى المضطهِدون ذلك ولكنهم لا يستطيعون أن يكفوا عن اضطهادهم . فهم يدركون أنهم هم أنفسهم مقضى عليهم إذا ما خففوا ذرة واحدة من قسوتهم . ولذا يمضون فى خطة الاضطهاد على الرغم من دعواهم أنهم معنيون برخاء العمال وبنظام الثمانى الساعات وبالقوانين التى تحدد عمل النساء والأطفال وبالمعاشات والمكافآت . فهذا كله محض ادعاء ، أو — على أحسن تقدير — اهتمام طبيعى من السيد الذى يريد أن يُبقى عبده فى حال صالحة . ولكنْ لا يزال العبد عبدا ، والسيد — الذى لا يستطيع أن يعيش بدون العبد — أقل استعداداً مما كان فى أى وقت مضى لأن يطلق سراحه . وتجد الطبقات الحاكمة نفسها فى موقف من العمال أشبه بموقف الرجل الذى صرع غريمه وظل ملصقاً إياه بالأرض لا لأنه غير راغب فى تركه يهرب بل بالأحرى لأنه يعلم أن لو أرخى قبضته عنه لحظة لفقد هو حياته ، لأن الرجل المدحور يحتدم غضباً ويمسك فى يده خنجراً .

وكذلك لا تستطيع طبقاتنا الغنية — رقت ضمائرها أم قست — أن تستمتع بالمزايا التى انتزعتها من الفقراء ، كما استمتع الأقدمون الذين كانوا موقنين بعدالة موقفهم . فكل ملذات العالم مسممّة إما بالندم وإما بالخوف .

هذا هو الاعوجاج الاقتصادى . وأظهر منه اعوجاج السلطة المدنية .

فالإنسان يُدَرَّب قبل كل شىء على عادات الخضوع لقوانين الدولة . وكل عمل من أعمال حياتنا فى الوقت الحاضر يقع تحت إشراف الدولة ، والرجل يتزوج ويطلق ويربى أبناءه طبقاً لأوامرها ، وفى بعض البلاد يعتنق الدين الذى تتخذه . فما هذا القانون الذى يحكم حياة البشر ؟ هل يؤمن به الناس ، وهل يرونه صحيحاً ؟ كلا ، بل هم فى معظم الأحيان يعرفون ظلمه ، ويحتقرونه ، ولكنهم يطيعونه . لا عجب أن اتبع القدماء قانونهم ، فقد كان أساسه الدين ، وكانوا يؤمنون إيماناً صادقاً بأنه هو وحده القانون الصحيح الذى يجب أن يدين له الناس جميعا بالطاعة . فهل هذا هو الشأن معنا ؟ إننا لا نستطيع إلا أن نعترف بأن قانون دولتنا ليس هو القانون الخالد ، بل واحد من قوانين كثيرة فى دول كثيرة ، تتساوى جميعها فى أنها ناقصة ، وربما بنيت على الزيف والجور .. قانون تناولته الصحافة بالمناقشة العلنية من جميع نواحيه . لا غرو أن كان العبرانى يتبع قوانينه ، فإنه لم يشك قط أن إصبع الله نفسه قد خطها ؛ ولا غرو أن اتبع الرومانى قوانينه ، فقد كان يعتقد أنه تلقاها من الحورية إيجيريا ؛ بل لا غرو أن اتُّبعت قوانين الدولة بين تلك الشعوب التى كانت تؤمن بأن حكامها الذين

يضعون القوانين مختارون من الله ، او بأن المجالس التشريعية تملك الإرادة والقدرة على سن خير ما يمكن من القوانين . ولكننا نعلم أن القوانين وليدة الصراع الحزبي والخداع والجشع ، وأنها ليست مستقر العدالة الصحيحة ولا يمكن أن تكون كذلك ؛ ومن ثم يستحيل على الناس فى العصر الحاضر أن يؤمنوا بأن الطاعة للقوانين المدنية أو لقوانين الدولة يمكن أن ترضى النزعة العقلية فى الطبيعة البشرية . وقد أدرك الناس منذ أمد طويل أن لا حكمة فى طاعة قانون متهم فى أمانته ، ولذلك يتعذبون لا محالة حين يخضعون له مع إنكارهم لسلطانه بينهم وبين أنفسهم . وعندما تكون حياة المرء كلها موثقة بقوانين يتبين فى جلاء أنها جائرة قاسية مصطنعة ، ولكنه يُلزَم طاعتها خوفاً من العقاب ، فلابد أن يتعذب ، ولا يمكن أن يكون غيرُ ذلك .

نحن نعرف مضار الجمارك والمكوس ، ولكننا مضطرون أن ندفعها ، ونرى حماقة الإنفاق على محكمة بموظفيها الكثيرين ، ونسلم بما للوعظ الكنسيّ من تأثير سيء ، ولكننا مضطرون للإنفاق عليهما . ونحن نعترف كذلك بما فى العقوبات التى توقعها المحاكم من قسوة وجور ، ولكننا نأخذ بنصيبنا من توقيع هذه العقوبات . ونحن نقر بأن توزيع الأرض ظلم وشر ، ولكننا ملزمون أن نخضع له . ونحن ننكر ضرورة الجيوش والحرب ،

وعلى الرغم من ذلك نجبر على تحمل الأعباء الباهظة التى يستلزمها الاحتفاظ بالجيوش وشن الحروب .

على أن هذه التناقضات ليست شيئاً إذا قورنت بذلك التناقض الذى يواجهنا فى مشكلة علاقاتنا الدولية ، والذى يصرخ طالباً الحل ، لأن العقل البشرى والحياة الإنسانية معاً رهينان بحله . وذلك هو التناقض بين الدين المسيحى وبين الحرب .

فنحن الأمم المسيحية التى تحيا حياة رُوحية واحدة ، وترحب فى فرح وفخر بمولد كل فكرة صالحة فى أى ركن من أركان الأرض ، دون نظر إلى الجنس والعقيدة .. نحن الذين نحب الشعراء والفلاسفة والعلماء كما نحب أهل الخير فى غير بلادنا .. نحن الذين نفخر ببطولة رجل كالأب داميان [1] كما لو كانت بطولتنا .. نحن الذين نحب الفرنسيين والألمان والأمريكيين والإنجليز ، ولا نقدر فضائلهم فحسب بل نرحب بلقائهم فى حرارة وود .. نحن الذين ننفر بل نذعر لو صورت لنا الحرب معهم على أنها مغامرة . . لابد أن تقشعر جلودنا حين نتصور إمكان أن

---

(١) الأب داميان (١٨٤٠ — ١٨٨٩) راهب بلجيكى ذهب إلى جزر الهند الغربية وتطوع بأن يرعى المصابين بالجذام من أهل تلك البلاد ، وكانوا ينفون إلى جزيرة صغيرة . وبعد أن أقام بينهم اثنى عشر عاماً أصيب بالجذام ، وظل بينهم إلى أن مات . [المترجم]

يقوم بيننا يوماً ما فى المستقبل نزاع لا يمكن فضه إلا بالقتل ، وأن كل واحد منا قد يدعى ليؤدى دوره فى المأساة المحتومة .

إن أوربا تحتفظ فى الوقت الحاضر بعدد من الجنود تحت السلاح أكبر من العدد الذى كان فى ميدان القتال فى أثناء حروب نابليون الكبيرة . وكل مواطن فى قارتنا — فيما عدا القلة النادرة — ملزم بأن يقضى بضع سنوات فى المعسكرات . وثمة تحصينات وترسانات وبوارج تبنى ، وأسلحة نارية حديثة تخترع ، ولا تلبث أن تستبدل بها أخرى ، لأن العلم الذى يجب أن يوقف دائماً على زيادة رخاء البشرية يوجه إلى تدمير البشرية ، باختراع وسائل جديدة فى كل حين لقتل أعداد أكبر من الناس فى أقصر وقت ممكن ، وهذه حقيقة لا بد أن نعترف بها آسفين .

« وعلى هذه الاستعدادات الهائلة للتذبيح ، وهذه الأعداد الضخمة من الجنود ، تصرف ملايين الجنيهات كل عام .. أموال كانت تكفى لتثقيف جماهير الشعب ، وتنفيذ أهم أعمال الإصلاح العام ، فتساعد بذلك على تحقيق حل كامل للمشكلة الاجتماعية .

« ولذلك تجد أوربا نفسها — على الرغم من كل انتصاراتنا العلمية — فى منزلة لا تفضل فى شىء ما كانت عليه فى أشد أيام العصور الوسطى بربرية . ويأسف كل إنسان على تلك الحالة التى لا هى

بحرب ولا هى بسلم ، ويتوق إلى الخلاص منها . ويؤكد رؤساء الحكومات تأكيداً جازماً أنهم يرغبون فى السلم ، ويتنافسون تنافساً حاراً فى تصريحاتهم السلمية ، ولكنهم يقدّمون بعد ذلك — دون تمهل — اقتراحات إلى الجمعيات التشريعية لزيادة التسلح ، محتجين بأنهم يلجئون إلى هذه الاحتياطات للمحافظة على السلام .

« ولكن هذا السلام ليس هو السلام الذى ننشده ، والشعوب لاتخدع به . فالسلام الحقيقى يقوم على أساس من الثقة المتبادلة ، أما هذا التسلح الرهيب فإنه يدل على شك مضمر بين الشعوب المختلفة ، إن لم يكن دالا على عداوة صريحة . وماذا عسانا نقول عن رجل يبتغى إظهار صداقته لجاره فيدعوه إلى دراسة خطة ما ، ويبسطها أمامه وهو يمسك بمسدس محشو ؟

« إن هذا التناقض الفظيع بين ما تؤكده الحكومات من رغبة فى السلام وما تنتهجه من سياسة الحرب ، هو ما يود المواطنون الصالحون أن يضعوا له حداً مهما يكن الثمن . »

ولقد يدهش المرء حين يعلم أن ٦٠,٠٠٠ حادثة انتحار تسجل سنوياً فى أوربا ، ولا تدخل فى هذا الإحصاء تركيا وروسيا وهذه الحالات كلها مؤكدة بالقرائن ولكن الأمر كان يكون أدعى للعجب لو كان العدد أقل . فكل رجل فى هذا العصر يفكر فى

التضاد بين معتقداته وأعماله يجد نفسه فى أزمة مظلمة . ولو تركنا التناقضات الكثيرة الأخرى بين الحياة العملية والاعتقاد ، تلك التى تمتلىء بها حياة الإنسان فى العصر الحاضر ، فإن النظر إلى الموقف العسكرى فى أوربا فى ضوء المسيحية التى تتظاهر بها لكاف لجعل الإنسان يشك فى وجود العقل البشرى ، ودفعه إلى الخلاص من عالم بربرى مجنون بأن ينهى حياته بيده .

حسب المرء أن يدرك ذلك حق الإدراك ليُدفع إلى الجنون والانتحار ، وليس هذا إلا أمراً عادياً ولاسيما بين الجنود .

وقليل من التأمل يثبت لنا حتمية هذا الاستنتاج .

فهو يفسر إمعان الناس فى جميع المفاسد ، من خمر وتبغ ولعب ورق وقراءة صحف وأسفار إلى سائر أنواع الملاهى والملاذ . إنهم يقبلون على جميع هذه المتع إقبال المستميت ، كأنما هى أعمال جادة . والحق أنها كذلك ، فلو لم يكن لدى الناس تسلية واحدة من هذه التسليات لقتل نصفهم أنفسهم دون تردد ، لأن الحياة التى تقوم على متناقضات حياة لا يمكن أن تحتمل ، وهذه هى الحياة التى يحياها معظمنا فى العصر الحاضر . إننا نعيش فى تناقض تام مع أعمق معتقداتنا . وهذا التناقض ظاهر فى العلاقات الاقتصادية والسياسية على السواء ، ظاهر لا يحتمل الشك فى التعارض بين الاعتراف

بالسنة المسيحية فى الحب الأخوى وبين التجنيد الإجبارى ، الذى يجبر الناس على أن يهيئوا أنفسهم لانتزاع أرواح بعضهم البعض ، أو باختصار فى كون كل رجل مسيحياً ومصارعاً فى الوقت نفسه . . .

وبينما تتزايد الجهود التى يبذلها مثقفو الطبقات العليا لإسكات الوعى النامى بأن نظام الحياة الحاضرة يجب تغييره ، تمضى الحياة فى تطورها وتعقدها دون تغيير اتجاهها ، فتزيد الحياة البشرية اعوجاجاً وألماً حتى تدفع الناس إلى الحد الأقصى من هذا التناقض . والتجنيد الإجبارى العام مثل من أمثلة هذا الحد الأقصى .

يقال عادة إن هـــذا التجنيد الإجبارى مثل زيادة التسلح وما يترتب عليها من الإكثار من الضرائب والقروض الوطنية فى جميع الأقطار .. كلها نتائج عرضية لأزمة معينة فى العلاقات الأوربية يمكن علاجها بتشكيلات سياسية معينة ، دون تغيير فى الحياة الداخلية .

وهذا خطأ مطلق . فالتجنيد الإجبارى ليس إلا تناقضاً داخلياً زحف إلى التصور الاجتماعى للحياة ، ولم ينكشف أمره إلا لأنه بلغ حده الأقصى فى فترة وصل فيها الناس إلى درجة من التطور المادى .

فالتطور الاجتماعى للحياة ينقل قيمة الحياة من الفرد إلى البشرية عامة ، عن طريق سلسلة متصلة من الأسرة والقبيلة والدولة .

وبناء على التصور الاجتماعى للحياة يقال إنه لما كانت قيمة الحياة فى المجموع الكلى للبشرية فيجب على كل فرد أن يضحى مصالحه لمصالح المجموع من تلقاء نفسه . وقد كان ذلك هو الشأن فعلا فى تشكيلات اجتماعية معينة كالأسرة أو القبيلة .

ولكن ازدياد تعقد المجتمعات واتساعها — ولاسيما أن الغزو يساعد على ضم الناس فى منظمات اجتماعية — يستتبع ازدياد الأفراد الذين يحاولون الوصول إلى أغراضهم على حساب إخوانهم . ومن هنا كثرت الحالات التى يلزم فيها الإخضاع بالقوة أو العنف .

ويحاول المدافعون عن التطور الاجتماعى للحياة أن يربطوا فكرة السلطة أو العنف بفكرة السلطان الأخلاقى ، ولكن هذا الربط مستحيل كل الاستحالة .

فتأثير السلطان الأخلاقى فى الإنسان هو تغيير رغباته ، بحيث ينصاع بإرادته لما يُطلب منه . والرجل الذى يستجيب للسلطان الأخلاقى يُسَر بإخضاع أفعاله للقوانين الأخلاقية ، أما السلطة كما يفهم منها عادة فهى وسيلة للقهر ، يجبر بها الرجل

على أن يعمل بما يعارض رغباته . فالرجل الذى يخضع للسلطة لا يفعل ما يُسَر بفعله بل يستسلم للضغط ، ولا بد من التهديد باستعمال العنف المادى أو استعماله فعلاً كى يجبر الرجل على عمل مالا يرغب ؛ فقد يحرم حريته أو يُجلَد أو يشوَّه ، أو يهدَّد بهذه العقوبات . وهذا هو معنى السلطة قديماً وحديثا .

وعلى الرغم من جهود الحكام الدائبة لإخفاء هذه الحقائق وإضفاء معنى آخر على السلطة فإنها لا تعنى إلا الغل والسلسلة اللذين بهما يوثق الرجل ويُسحَب ، والسوط الذى به يجلد ، والسكين أو الفأس التى بها تقطع أطرافه أو يجدع أنفه أو تصلم أذنه أو يحز رأسه . السلطة إما تهديد بهذه الأفعال وإما مباشرتها : كانت هذه هى العادة الجارية فى أيام نيرون وجنكيزخان ، ولا تزال متبعة حتى فى أكثر الحكومات تحررا ، كجمهوريتى فرنسا وأمريكا . وإذا كان الناس يخضعون للسلطة فما ذاك إلا لخوفهم أن يؤخذوا بالشدة إن هم قاوموا . وكل ما تطلبه الدولة من دفع ضرائب أو أداء واجبات عامة أو خضوع لعقوبات النفى والغرامة إلخ . مما يبدو أن الناس يستسلمون له بإرادتهم — كل ذلك يُفرض دائما بالتهديد الجسمى أو بحقيقة العقاب الجسمى .

إن العنف المادى هو أساس السلطة .

والتنظيم العسكرى الذى يجعل القوة المسلحة كلها تتصرف تصرف رجل واحد وتخضع لإرادة واحدة ، هو الذى يجعل تنفيذ العنف المادى ممكنا . فهذه الجماعة من الرجال المسلحين الخاضعين لإرادة واحدة يكونون ما يسمى بالجيش . وقد كان الجيش دائما وما زال أساس السلطة الممثلة فى قواده . وكان الشغلُ الشاغل لجميع الملوك من القياصِرة الرومان إلى الأباطرة الروس والألمان أن يحموا الجيش ويتملقوه ، فهم يدركون أنه إذا كان الجيش معهم فالسلطة فى أيديهم .

وتدريب الجيوش وزيادتها للمحافظة على السلطة هو ما أدخل فى التصور الاجتماعى للحياة عنصر الانحلال .

فسلطة الدولة قد تقضى على العنف الداخلى ، ولكنها بازدياد قوتها تبعا لاستمرارها تُدخل فى الحياة أنواعا أخرى جديدة من العنف ، لا تفتأ تتزايد شدتها . ومع أن عنف السلطة فى الدولة أقل لفتاً للأنظار من عنف أفراد المجتمع إزاء بعضهم البعض ، لأن مظهره الرئيسى هو القهر لا الصراع ، فإنه قائم على الرغم من ذلك ، بل هو عنف بليغ .

ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك . فإن الاستحواذ على السلطة لا يُفسد الرجال فحسب ، بل إن الحكام يحاولون دائما

ــ عن وعى وتدبير أو عن غير وعى وتدبير ــ أن ينزلوا رعاياهم إلى أدنى درجات الضعف ؛ لأن الرعية كلما ضعفت قل الجهد اللازم لإخضاعها .

ولذلك فإن استخدام العنف ضد المظلومين يبلغ حده الأقصى الذى ليس بعده إلا قتل الدجاجة ذات البيضة الذهبية . أما إذا انقطعت الدجاجة عن وضع بيضتها كما هى الحال بالنسبة إلى هنود أمريكا أو سكان جزر فيجى أو الزنوج فإنها تُقتَل على الرغم من احتجاج دعاة الإنسانية على طريقة القتل .

والدليل القاطع على صحة هذه القضية فى الوقت الحاضر هو مركز العمال الذين لا يعدُّون فى الحقيقة أن يكونوا رجالا مقهورين .

فعلى الرغم من كل الجهود المزعومة من جانب الطبقات العليا للتخفيف عنهم ، فإن عمال العالم جميعاً خاضعون لقاعدة حديدية لا يمكن تعديلها ، مؤداها ألا يحصلوا إلا على الكفاف ، كيما تدفعهم حاجتهم إلى الكدح المتواصل ، الذى يجنى ثمراته سادتهم أو قل أولئك الذين غلبوهم على أمرهم .

والملاحظة التى لا تتخلف هى أنه بعد استمرار السلطان ونموه تقل المزايا التى يحصل عليها من يخضعون له ، فى حين تكثر المضار التى تنزل بهم .

ولكنهم ظلوا غير مدركين لهذه الحقيقة إلى عهد قريب ، وكانوا من السذاجة فى معظم الأحيان بحيث ظنوا أن الحكومات أقيمت لمصلحتهم ، فهى تحميهم من الهلاك ، وأنَّ تصوُّرَ إمكان العيش بدون حكومات تجديف لا يوصف ، فما هو إلا مبدأ الفوضوية بكل ما تستتبعه من فظائع .

وكان الناس يعتقدون — وكأن الأمر حقيقة ثابتة لا تحتاج إلى برهانٍ جديد — أنه لما كانت جميع الأمم قد تطورت إلى شكل الدولة فيجب أن يبقى هذا الشكل أبداً شرطاً لازماً لتطور البشرية .

وعلى هذا استمرت الحال مئاتٍ بل آلافاً من السنين ، وحرصت الحكومات أو ممثلوها — وما زالوا يحرصون — على إبقاء هذا الوهم فى أذهان الشعب .

وكما كانت الحال أيام الأباطرة الرومان ، كذلك تكون الآن . فمع أن فكرة انعدام فائدة السلطة بل ضررها قد بدأت تتغلغل فى وعى الناس فقد كان من الممكن أن يستمر ذلك الوهم أبداً لو لم ترَ الحكومات من الضرورى أن تزيد جيوشها لتأييد سلطتها .

والاعتقاد الشائع هو أن الحكومات تزيد جيوشها لأنها وسيلة للدفاع عن نفسها ضد الأمم الأخرى ، وينسى أصحاب هذا الاعتقاد أن الحكومات تحتاج إلى الجيوش أولا لحماية نفسها من رعاياها المستعبدين .

كان ذلك ضرورياً لها دائماً ، وقد زادت ضرورته بانتشار التعليم ، وازدياد الاتصال بين مختلف القوميات ، وهو فى الوقت الحاضر أشد ضرورة إزاء الحركات الشيوعية والاشتراكية والفوضوية والعمالية . والحكومات تدرك هذه الحقيقة ، وتزيد وسيلتها الأساسية للدفاع وهى الجيش المنظم .

إذا كان العامل لا يملك أرضاً ، إذا كان محروماً من الحق الطبيعى لكل إنسان فى استخراج وسائل معيشته ومعيشة أسرته من الأرض ، فليس هذا لأن الشعب يعارض ذلك بل لأن الحق فى منح العمال هذه الميزة أو حرمانهم منها قد أعطى لأفراد معينين ، وهم ملاك الأرض . والجيش يسند هذا النظام غير الطبيعى . وإذا كانت الثروة الضخمة التى يكسبها العمال ويدخرونها لا تعد ملكا مشاعا ، بل شيئا لا ينبغى أن تتمتع به إلا القلة المختارة ؛ وإذا كان لأناس معينين سلطة جباية الضرائب على العمل وحق صرف ذلك المال فى أى الأغراض يرونها ضرورية . وإذا كانت إضرابات العمال تقمع ، واتحادات الرأسماليين تشجع . وإذا كان أناس معينون يسمح لهم بتقرير أمر التعليم الدينى والمدنى وتربية الناشئة ، وأناس معينون آخرون يعطون الحق فى سن القوانين التى يجب أن يطيعها الناس جميعاً . وإذا كان مخولاً لهم أن يتحكموا فى حياة البشر وممتلكاتهم ، فإن هذا كله ليس سببه رغبة الناس

فيه ، أو جريانه على سنة الطبيعة ، بل إن الحكومات تريد ذلك لمصلحتها ومصلحة الطبقات الحاكمة ، وهـذا كله يتم بطريق العنف المادى .

وإذا لم يكن كل إنسان قد أدرك ذلك ، فسوف يراه جليا حيثما بُذلت محاولة لتغيير الأحوال الحاضرة .

ومن أجل هذا تحتاج جميع الحكومات والطبقات الحاكمة إلى الجيوش قبل كل شيء ، لتحافظ على نظام للحياة لم ينشأ من حاجات الشعب ، بل على العكس كثيراً ما يضر بهم ، ولا يفيد منه إلا الحكومة والطبقات الحاكمة .

فكل حكومة تحتاج إلى الجيش الذى يفرض طاعتها لتستفيد من عمل رعاياها . ولكن ليس ثمة حكومة تقوم وحدها ؛ فإلى جانبها تقف حكومة القطر المجاور ، التى تستفيد أيضا من تسخير رعاياها ، وتقف دائما على أهبة الانقضاض على جارتها والاستيلاء على الميزات التى كسبتها هذه من عمل رعاياها . ومن هنا تحتاج كل حكومة إلى جيش لا لتستعمله فى الداخل فقط بل لتحفظ غنائمها من النهب الخارجى . وكذلك تجد كل حكومة نفسها مضطرة إلى أن تسبق جارتها فى تضخيم جيشها ، وكما قال منتسكيو منذ مائة وخمسين عاما : « إن زيادة الجيوش عدوى » .

فإحدى الدول تزيد جيشها لترهب رعاياها ، فتوجس جارتها خيفة ، وسرعان ما تحذو حذوها .

إن الجيوش لم تبلغ أعدادها الملايين التى بلغتها الآن للخوف من الغزو الخارجي وحده ؛ فالذى سبب الزيادة أولا هو ضرورة إخماد كل محاولة للعصيان من جانب رعايا الدولة . وأسباب تضخم الجيوش متعاصرة ، يتوقف الواحد منها على الآخر . فالجيوش ضرورية لإخماد محاولات الثورة الداخلية كما أنها ضرورية للدفاع الخارجي . وكلا الأمرين يتوقف على الآخر . واستبداد الحكومات يزيد على قدر ازدياد قوتها ونجاحها الداخلى ، كما يزيد عدوانها الخارجي بازدياد استبدادها الداخلى .

والتجنيد الإجبارى العام هو الخطوة الأخيرة فى عملية القهر التى تحتاج إليها الحكومات لتدعيم البناء كله ؛ وهو الحد الأقصى للطاعة بالنسبة إلى المحكومين . إنه مفتاح العقد الذى يحمل الجدران ، ولو انتُزع لانتقض الجميع . ولقد جاء الوقت الذى أصبحت فيه مفاسد الحكومات المتفاقمة ومنازعاتها المتبادلة تقتضى من جميع رعاياها تضحيات روحية إلى جانب التضحيات المادية ، حتى ليقف كل رجل ويسأل نفسه : هل أستطيع أن أقدم هذه التضحيات ؛ ولمن أقدمها ؟ إن هذه التضحيات تطلب منى باسم الدولة .. باسم

الدولة يُطلب منى أن أتخلى عن كل ما يحبب الحياة إلى الإنسان .. عن السلام، والأسرة ، والأمن ، والكرامة الشخصية . فما هذه الدولة التى باسمها أطالب بهذه التضحيات المروعة ؟ وما فائدتها ؟

يقولون لنا إن الدولة ضرورية أولاً لأنه لولاها لما أمن إنسانٌ من العنف واعتداء الأشرار . وثانيا لأنه لولاها لكنا كالوحوش لا دين لنا ولا أخلاق ولا ثقافة ولا تربية ولا تجارة ولا وسائل للمواصلات ولا نظم اجتماعية ما . وثالثا لأنه لولا الدولة لتعرضنا للغزو من الأمم المجاورة .

يقولون لنا : « لولا الدولة لاستهدفنا للعنف واعتداء الأشرار فى عقر دارنا » .

ولكن من هؤلاء الأشرار الذين تنقذنا الحكومة والجيش من اعتدائهم وهجومهم ؟ إن كان مثل هؤلاء الرجال قد وجدوا منذ ثلاثة قرون أو أربعة ، عندما كان الرجال يفاخرون بمهارتهم الحربية وقوة سواعدهم ، والرجل يثبت شجاعته بقتل إخوانه فى الإنسانية ، فإننا لا نجد مثل هؤلاء الرجال فى الوقت الحاضر . فرجال عصرنا لا يحملون الأسلحة ولا يستعملونها ، وهم يرغبون فى السلم والأمن كرغبتنا فيهما ، لأنهم يؤمنون بمبادئ الإنسانية ومحبة الجار . وإذن فلم يبق ثمة وجود لهذه الطبقة العجيبة من المغتالين

الذين يقال إن الدولة تحمينا من أذىً قد يلحقونه بنا .

بل إن المرء يستطيع أن يقول بعكس ذلك تماما فى أيامنا هذه . فإن أعمال الحكومات التى تهبط كثيراً عن المستوى العام للأخلاق ، بما تعمد إليه من وسائل العقاب العتيقة الفاسدة ، من أشغال شاقة وسجون ومشانق ومقاصل — هى أقرب إلى أن تنزل بالمستوى الخلقى منها إلى أن ترفعه ، ومن ثم فهى أقرب إلى أن تزيد عدد المجرمين منها إلى أن تقلله .

ويقال : « لولا الدولة لما وجدت نظم تعليمية ولا أخلاقية ولا دينية ولا دولية ؛ ولما وجدت طرق للمواصلات ؛ ولولا الدولة لما وجدنا المنظمات الضرورية لنا جميعا . »

ومثل هذه الحجة كان يمكن أن تستند إلى أساس منذ بضعة قرون ، أما الآن فلا . فإن كان قد وجد عصرٌ ما قلّ فيه الاتصال بين الشعوب ، ولم تألف التعامل ولا تبادل الأفكار فيما بينها بحيث يمكنها أن تتفق على ما يمس مصالحها العامة من أمور التجارة أو الصناعة أو الاقتصاد دون معونة الدولة ، فإن الأمر الآن بخلاف ذلك . فقد أدى اتساع وسائل الاتصال ونقل الأفكار إلى هذه النتيجة : أن الإنسان الحديث إذا أراد تأسيس جمعيات أو مجالس أو مؤتمرات ، أو منظمات علمية أو اقتصادية أو سياسية فإنه يستطيع أن يستغنى فى يسر عن مساعدة الحكومات ، بل إن

الحكومات فى معظم الأحيان تعوق السعى نحو هذه الأهداف أكثر مما تعززه .

ولم تزل الحكومات منذ نهاية القرن الماضى تمنع تأييدها عن جل الحركات التقدمية التى يقوم بها البشر ، بل تضع الحوائل أمامها . هكذا فعلت فى إلغاء العقاب البدنى والتعذيب والرق ؛ وهكذا فعلت فى تقرير حرية الصحافة والاجتماع . وفوق ذلك فإن سلطات الدولة والحكومات فى هذه الأيام لا تكتفى بعدم التعاون فى الأعمال التى يحاول بها البشر إيجاد أشكال جديدة للحياة ، بل تعمد إلى عرقلة هذه الأعمال . فحل قضايا العمل وملكية الأرض ، والمشكلات السياسية والدينية ، لا يلقى تشجيعاً من السلطات الحكومية ؛ بل إنه يُعارض معارضة ظاهرة .

ويقولون : « لولا الدولة وسلطة الحكومة لوقعت الأمم تحت سيطرة جيرانها . »

وهذه حجة لا تستحق المناقشة ، فإنها تدحض نفسها بنفسها .

فهم يقولون لنا إن الحكومة وجيوشها لازمة للدفاع عنا ضد الدول المجاورة التى يمكن أن تتغلب علينا . ولكن جميع الحكومات تقول هذا عن بعضها البعض ؛ ونحن نعلم مع ذلك أن كل أمة من الأمم الأوربية تعتنق مبادئ الحرية والإخاء التى تعتنقها سائر تلك

الأمم ، ولهذا لا تحتاج إلى دفاع ضد جاراتها . أما إذا كان الحديث عن الدفاع ضد البرابرة فإن واحداً فى المائة من الجيوش تحت السلاح فى الوقت الحاضر يكون كافيا . إن زيادة القوات المسلحة لا تحمينا من هجوم جيراننا بل تستثير هذا الهجوم الذى تزعم أنها تمنعه .

وهكذا لا يستطيع إنسان يفكر فى معنى الدولة التى يطالَب باسمها أن يضحى بسلامه وأمنه وحياته ، لا يستطيع الهرب من اليقين بأنه لم يبق ثمة أساس لهذه التضحيات . . .

إن الأمم المسيحية فى العصر الحاضر ليست فى حال أقل قسوة من عصور الوثنية . بل إن حالها قد زادت سوءاً من نواحٍ كثيرة ولا سيما القهر الذى تعانيه . فى الماضى كان المظهر الخارجى من القسوة والعبودية يطابق الوعى الباطنى عند الناس مطابقة لم يزدها الزمن إلا انسجاماً . أما فى العصر الحاضر فإن الحالة الظاهرة من القسوة والعبودية تناقض الوعى المسيحى عند الناس مناقضة تامة ، مناقضة لا تزال تبرز عاماً بعد عام .

وما أغنانا عن التعاسة والألم الناتجين من ذلك ! لكأنه مخاض طويل ، فكل شىء مهيأ للحياة الآتية ، ولكنْ لا تظهر حياة .

والموقف يبدو وكأنما لا خلاص منه . ولقد يكون الأمر

كذلك لو لم يكن البشر ، والعالم من ثمة ، قد منحا القدرة على فهم فيه قدرة التحرير على الفور من جميع الأغلال ، مهما تكن محكمة الإغلاق .

وهذا هو التصور المسيحى للحياة كما أبلغ للناس منذ ألف وثمانمائة عام .

ليس على الإنسان إلا أن يفهم حياته كما تعلمه المسيحية أن يفهمها ، أن يدرك أن هذه الحياة ليست ملكا له ولا لأسرته ولا للدولة ، بل للذى بعثه إلى العالم ، وأن يعلم — من ثمة — أن واجبه ليس أن يعيش وفقاً لشرعته الشخصية ولا لشرعة أسرته أو دولته ، بل أن يعيش طبقاً للشريعة الأبدية لمن أعطاه الحياة — ذلك حسبه ليشعر أنه حر مطلق الحرية من كل سلطة بشرية ، فلا يعود ينظر إليها على أنها يمكن أن تكون عقبة أمامه .

ليس على الإنسان إلا أن يدرك أن الغاية من حياته هى العمل بشريعة الله ، فيكون سلطان هذه الشريعة التى تستأثر بكل ولائه ناسخاً بالضرورة لسلطة القوانين البشرية جميعا .

والمسيحى الذى يتأمل قانون الحب المركوز فى كل نفس بشرية ، والذى بعثه المسيح معلم البشر ، يتحرر من كل سلطة بشرية .

وقد يلقى المسيحى إيذاءً ظاهراً ، وقد يحرم حريتـــه

الشخصية ، وقد يُستعبد لشهواته — ومرتكب الذنب عبد لذنبه — ولكنه لا يمكن أن يساق أو يُجبر بالتهديد على ارتكاب عمل يناقض وجدانه . لا يمكن إجباره على ذلك لأن الحرمان والآلام التي تؤثر أعظم التأثير فيمن يتعلقون بالتصور الاجتماعي للحياة لا سلطان لها عليه . فالحرمان والآلام التي تقضي على النعمة المادية وهي هدف التصور الاجتماعي للحياة ، لا تحدث أثراً في نعمة المسيحي التي تقوم على الشعور بأنه يصدع بأمر الله ، بل إنها قد تزيد هذه النعمة إذا ابتلى بها لأنه يصدع بأمر الله .

لهذا فإن المسيحي الذي يطيع القانون الإلهي الباطني لا يصبح عاجزاً فحسب عن تنفيذ أوامر القانون الخارجي إذا تعارضت مع إحساسه بقانون الحب الإلهي ، كما هو الشأن في مطالب الحكومة منه ، بل إنه لا يمكن أن يقر بطاعة فردٍ ما ، أو بكونه رعية حسبما اصطلح على القول . فعند المسيحي أنَّ إعطاء العهد بالخضوع لحكومة ما — وهو ما يمكن أن يعد أساس الحياة في ظل الدولة — نقض صريح للمسيحية ؛ لأن الفرد الذي يعاهد سلفاً على الطاعة الضمنية لكل قانون يسنه البشر يكون كمن شهد بإنكار قطعي للمسيحية ، التي يقوم جوهرها على الطاعة في كل أمرٍ لذلك القانون الذي يشعر به في باطنه .. قانون الحب !

إن موقف العالم المسيحي بقلاعه ومدافعه ومتفجراته وبنادقه

وقذائفه وسجونه ومشانقه وكنائسه ومصانعه وجماركه وقصوره لموقف فظيع . ولكن لا القلاع ولا المدافع ولا البنادق تستطيع أن تشن حربا بنفسها ، ولا السجون تستطيع أن تغلق أبوابها ، ولا المشانق أن تشنق ، ولا الكنائس أن تُضِلّ ، ولا الجمارك أن تطالب بنصيبها ، ولا القصور والمصانع أن تقيم أركانها .. فكل ذلك يعمله البشر ، وحين يفهم البشر أنهم ليسوا بحاجة إلى عمله فلن يبقى لهذه الأشياء وجود .

وقد بدأ الناس يفهمون هذا . إن لم يكن الجميع قد فهموه حتى الآن ، فقد فهمه أولئك الذين يتبعهم سائر العالم من بعد . ومحالٌ أن يعود ما فُهِم غير مفهوم ، وإن الجماهير لقادرة على أن تتبع طريق أولئك الذين فهموا ، بل لابد لها فى النهاية أن تتبع هذا الطريق .

ومن هنا تجيء النبوءة : أن سيأتى وقت يصغى فيه الناس جميعا لكلمة الله ، وينسون فنون الحرب ، ويصهرون سيوفهم محاريث وحرابهم مناجل . ومعنى ذلك ، إذا ترجمناه ، أن جميع السجون والقلاع والمعسكرات والقصور والكنائس ستبقى خالية ، والمشانق والمدافع ستكون بغير عمل . إن هذا لم يعد حلما طوبويا بل نظاما جديداً محدداً للحياة ، تتقدم نحوه البشرية بسرعة تزداد كل حين .

ولكن متى يكون ؟

منذ ألف وثمانمائة عام قال المسيح جوابا عن هذا السؤال ، إن نهاية العالم الحاضر — أى النظام الوثنى — ستأتى حين يبلغ شقاء الإنسان حده الأقصى ؛ وحين تعلن — فى الوقت نفسه — فى أرجاء الأرض بشارة مملكة السماء ، أى إمكان قيام نظام جديد لا يؤسس على العنف .

قال المسيح :

« وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحدٌ ولا ملائكة السماء إلا الرب وحده . . . اسهروا إذن لأنكم لا تعلمون فى أية ساعة يأتى ربكم » .

متى تأتى الساعة ؟ لقد قال المسيح إننا لا نستطيع أن نعلم . ولهذا السبب نفسه يجب أن نستعد للقائها .

وليس ثمة جواب آخر . فلا يمكن للبشر أن يعلموا اليوم والساعة التى تجىء فيها مملكة الله ، لأن مجىء هذه الساعة إنما يتوقف على البشر أنفسهم .

الجواب كجواب ذلك الحكيم الذى سأله المسافر كم بينه وبين المدينة ، فقال له : « امضِ فى سيرك ! » .

أنى لنا أن نعلم بُعد الغاية التى تسعى نحوها البشرية إذا كنا

لا نعلم كيف يكون سعيها ؟ ذلك يتوقف على البشرية إن مضت قدما أو توقفت ، إن حثت خطاها أو أبطأت .

وكل ما فى مقدورنا أن نعلمه هو ما ينبغى أن نفعل أو لا ينبغى أن نفعل — نحن الذين تتألف منا البشرية — لتحقق مملكة الله هذه . وهذا نعلمه كلنا ، فما على كل منا إلا أن يبدأ فى أداء واجبه ، ما على كل منا إلا أن يعيش وفقا للنور الذى فى باطنه . فتتحقق مملكة الله الموعودة التى يحن إليها قلب كل إنسان . . .



فلسفة التاريخ عند تولستوى

قرب نهاية سنة ١٨١١ بدأت حركة حشد وتركيز للقوات في غرب أوربا ؛ وفى سنة ١٨١٢ نُقلت هذه القوات — التى بلغت ملايين الرجال ، إذا أدخلنا فى حسابنا أولئك الذين كانوا يعملون فى نقل الجيوش وتموينها — نقلت من الغرب إلى الشرق نحو حدود روسيا ، حيث كانت القوات الروسية معبأة كما كانت فى العام السابق .

وفى اليوم الرابع والعشرين من يونية ، عبرت قوات أوربا الغربية الحدود الروسية ، وبدأت الحرب . أو بعبارة أخرى ، وقع حادث مناقض للعقل البشرى والطبيعة البشرية .

فارتكب ملايين الرجال ضد بعضهم البعض ما لا يحصى من الجرائم ، من خداع وخيانة وسرقة وتزوير وتزييف نقود ونهب وإحراق وقتل — عدداً لا يمكن أن تباريه جميع محاكم العالم فى عدة قرون ، ولكن مقترفيها لم يكن يخطر ببالهم — فى ذلك الوقت — أنها جرائم .

(*) « من الحرب والسلام » .

كيف وقع ذلك الحادث العجيب ؟
ماذا كانت أسبابه ؟

يقول المؤرخون ، بتصديق ساذج ، إن أسباب هذا الحادث ترجع إلى الإهانة التي وجهت إلى دوق أولدنبرج ، وعدم مراعاة « النظام القاري » ، وطموح نابليون ، وحزم ألكسندر ، وأخطاء الدبلوماسيين ، إلى نحو ذلك .

ولو كان الأمر كما ذكروا لما احتاج وقف الحرب إلا إلى أن يقوم مترنيخ أو روميانتسوف أو تاليران ببذل شيء من الجهد بين جلسة وحفلة ، وإظهار البراعة في تحرير ورقة من أوراق الدولة ، أو أن يكتب نابليون إلى ألكسندر : « سيدي وأخي ، إنني أوافق على رد الدوقية إلى دوق أولدنبرج . »

ومن اليسير أن نفهم أن الناس في ذلك الوقت تصوروا الأمر على هذا النحو . ومن اليسير أن نفهم أن نابليون عزا سبب الحرب إلى مؤامرات إنجلترا (وهذا ما قاله فعلاً في جزيرة سنت هيلانة) ؛ ومن اليسير أن نفهم أن أعضاء البرلمان البريطاني عزوا سبب الحرب إلى طموح نابليون ؛ وأن أمير أولدنبرج كان يرى أن الحرب نتجت عن الإهانة التي وجهت إليه ؛ وأن التجار اعتبروا « النظام القاري » الذي أضر بالتجارة الأوربية مسئولا عن هذه الحرب ؛

وأن قدامى الجنود وقواد الجيوش رأوا سببها الرئيسى هو ضرورة البحث لهم عن شيء يعملونه ؛ وأن أنصار الملكية الشرعية فى ذلك الزمن رأوه فى ضرورة المحافظة على المبادىء القويمة ؛ والدبلوماسيين فى أن المحالفة بين روسيا والنمسا سنة ١٨٠٩ لم تُخْفَ عن علم نابليون بمهارة كافية ، وأن المذكرة رقم ١٧٨ قد صيغت فى عبارات غير دقيقة .

من اليسير أن نفهم أن هذه العلل وعللاً أخرى لا تحصى ، ولا تتناسب كثرتها إلا مع كثرة وجهات النظر التى لا حد لها — كانت تبدو مقنعة لأهل ذلك الزمن ؛ أما نحن الأجيال التالية ، الذين نجد أنفسنا على بعد كافٍ لنتأمل ضخامة الحادث من أفق أوسع ، والذين نريد أن نسبر معناه البسيط المروع ، فإن مثل هذه العلل لا تبدو لنا كافية . فنحن لا نستطيع أن نصدق أن ملايين من من المسيحيين قتلوا بعضهم بعضاً وعذبوا بعضهم بعضاً لأن نابليون كان طموحاً ، وألكسندر حازماً ، والسياسة البريطانية ماكرة ، ودوق أولدنبرج مهاناً . ومن المستحيل علينا أن نفهم العلاقة بين هذه الظروف وبين حقيقة القتل والعنف ذاتها : لماذا ترتب على الإهانة التى لحقت بالدوق أن ألوفاً من الرجال من الطرف الآخر لأوربا قتلوا ونهبوا أهل حكومتى سمولنسك وموسكو ، وقُتلوا بأيدى هؤلاء .

نحن الأجيال التالية ، الذين لسنا بمؤرخين ، ولا تستهوينا العمليات الفكرية البعيدة الاحتمال ، والذين نستطيع بفضل ذلك أن نتأمل الظواهر بنظر صحيح ليست عليه غشاوة ، تبدو لنا أسباب تلك الظواهر فى كثرتها التى لا تحصى . وكلما تعمقنا الأسباب تفتحت لنا عن عدد أكبر ، وبدا كل سبب أو سلسلة من الأسباب على حدة ذا أثر بذاته ككل سبب آخر ، عديم الأثر لتفاهته بالقياس إلى ضخامة الحوادث ككل سبب آخر أيضاً ؛ عديم الأثر كذلك لعجزه عن أن ينتج الأحداث التى نتأملها دون معاونة الأسباب الأخرى كلها مجتمعة .

فرفض نابليون أن يسحب جيشه إلى ما وراء الفستولا ويعيد دوقية أولدنبرج سببٌ له من القيمة فى هذا البحث مثل ما لاستعداد جاويش فرنسى واحد أن يشارك فى المعركة الثانية أو إبائه ذلك ؛ لأنه لو أبى هو وثانٍ وثالث وشاركهم فى الإباء ألف جاويش وجندى لتضاءل جيش نابليون إلى حد تمتنع معه الحرب .

ولو أن نابليون لم يغضب حين طُلب منه سحب قواته إلى ما وراء الفستولا ، ولو لم يصدر أوامره إلى هذه القوات ببدء المعركة لما وقعت الحرب ؛ ولكن لو أن جميع ضباط الصف رفضوا أن يخوضوا المعمعة لما وقعت الحرب أيضا . وكانت الحرب

تمتنع أيضا لولا المؤامرات الإنجليزية ، وأمير أولدنبرج ؛ ولو لم يشعر ألكسندر بالحنق ؛ ولو لم يوجد حكم مطلق فى روسيا ؛ ولو لم توجد ثورة فرنسية ولا تبعتها دكتاتورية ولا إمبراطورية ؛ ولو لم يوجد شيء من الأشياء التى أدت إلى الثورة ، وهلم جرا . لو تخلف سبب واحد من هذه الأسباب لما وقعت الحرب . وإذن فلا بد أنها جميعا — أى آلاف الملايين من الأسباب — قد تعاونت لتؤدى إلى هذه النتيجة .

ونخلص من ذلك إلى أنه لا يمكن أن يكون ثمة سبب نهائى واحد لهذه الأحداث ، وأن الحادث العظيم قد وقع لأنه كان لا بد أن يقع . كان لا بد أن يتخلى ملايين الرجال عن مشاعرهم البشرية وعن عقولهم ويسيروا من الغرب إلى الشرق ليقتلوا إخوانهم ؛ تماما كما حدث منذ عدة قرون أن جحافل من البشر تدفقت من الشرق إلى الغرب ليقتلوا إخوانهم أيضا .

وما كانت أفعال نابليون وألكسندر ، اللذين يبدو ان هذه الحادثة أو تلك كانت متوقفة على أمرهما ، بأقرب إلى التلقائية والحرية من أفعال أى جندى اشترك فى الحملة مجنداً أو متطوعا . ليس من ذلك بد ، لأن تنفيذ إرادة نابليون أو ألكسندر — اللذين يبدو أن الحادث كان متوقفا عليهما — استلزم اشتراك عدد لا يحصى

من العوامل ، التى لو تخلف واحد منها لما وقع الحادث . كان من اللازم أن يوافق ملايين الرجال على تنفيذ إرادة هاتين الوحدتين الإنسانيتين الضعيفتين ، ملايين الرجال الذين كانت فى أيديهم كل القوة حقا ، الجنود الذين حاربوا ، والرجال الذين نقلوا الذخائر والمدافع ، وقد أدى بهم إلى الموافقة عدد لا يحصى من الأسباب المعقدة المتنوعة .

لا مفر من الجبرية فى التاريخ إذا أردنا أن نفسر ظواهره غير المعقولة (أى تلك الأحداث التى تفوت علتها إدراكنا) . وكلما حاولنا أن نفسر هذه الظواهر التاريخية بعقلنا بدت لنا أبعد عن المنطق والإدراك .

فكل إنسان يعيش لنفسه ، ويتمتع بحرية كافية لتحقيق أغراضه الشخصية ، ويشعر بجماع وجوده أنه يستطيع أن يقوم من ساعته بعمل من الأعمال أو يأباه . ولكنه متى فعله فإن هذا الفعل الذى تم فى فترة محدودة من الزمان يخرج عن مشيئته ، ويصبح عنصراً فى التاريخ ، يحتل مكانه فيه بمعنى مقدر لم يعد فيه مجال للهوى .

ولكل إنسان حياة مزدوجة : حياته الشخصية فى جانب ، وهى حياة حرة بقدر تجرد مصالحها ؛ وفى الجانب الآخر حياته

بوصفه عنصراً ، نحلة واحدة فى السرب . وهنا لا مجال للإنسان أن يخرج عن القوانين المفروضة عليه .

والإنسان يعيش لنفسه فى وعيه ، ولكنه فى الوقت نفسه أداة غير واعية لتحقيق أغراض تاريخية واجتماعية . والعمل إذا تم تحدد ، وإذا تلاقى عمل إنسان بغيره — بملايين الأعمال التى تصدر عن أناس آخرين — فإن هذا العمل يكتسب قيمة تاريخية وكلما ارتفع الرجل فى السلم الاجتماعى ، وكثر الناس الذين له بهم صلة ، وعظم تأثيره فى غيره ، وضحت الضرورة الحتمية المقدرة فى كل عمل من أعماله .

قلب الملك فى قبضة الرب

الملك عبد التاريخ

فالتاريخ - أى الحياة الكلية اللاشعورية للبشرية فى مجموعها - يستفيد فى كل لحظة من حياة الملك ، بوصفها أداة لتحقيق أغراضه .

ولئن لم يتخيل نابليون قط مثلما تخيل فى هذا العام من ١٨١٢ أن إراقة دماء شعبه أو حقنها - كما عبر ألكسندر فى كتابه إليه - متوقفان عليه . إنه لم يكن قط فى حقيقة الأمر أكثر خضوعاً مما كان آنئذ للقوانين الحتمية التى تَفْرِض عليه حتى وهو يعمل

وفق إرادته الحرة ، كما يبدو له ، أن يحقق للعالم عامة ـ للتاريخ ـ ما قُدِّر تحقيقه .

سار رجال الغرب نحو الشرق ليقتل بعضهم بعضاً . وبقانون المصادفات تنكرت ألوف الأسباب التافهة فى زى أسباب حاسمة وافقت هذا الحادث ، ففسّرت هذه الحركة وهذه الحرب فى الظاهر : السخط لعـــدم مراعاة « النظام القارى » ؛ دوق أولدنبرج ؛ غزو بروسيا الذى لم يكن له من غرض (كما خيل لنابليون) إلا الحصول على سلم مسلح ؛ ولع إمبراطور فرنسا بالحرب وإلفه لها اللذان اتفقا مع مزاج شعبه ؛ إغراء القيام باستعدادات أوسع ، واعتماد الأموال للقيام بهذه الاستعدادات ، والتعويضات التى تفى بهذه الأموال ؛ التكريم المدير للرأس فى درسدن ؛ المفاوضات الدبلوماسية التى أجريت ـ فى نظر المعاصرين لتلك الأحداث ـ برغبة مخلصة فى المحافظة على السلام ، ولكنها لم تزد على أن أساءت إلى كبرياء كلا الجانبين ؛ وملايين الملايين من الأسباب الأخرى اتُّخذت عللاً زائفة لهذا الحادث الذى كان لا بد أن يقع ، ووافقته فى الزمن .

عندما تنضج تفاحة وتسقط ـ فما الذى يجعلها تسقط ؟ أهى الجاذبية ؟ أم أن غصنها ذوى ؟ أم أن الشمس جففته ؟ أم أنها

ثقيلة ؟ أم أن الريح هزتها ؟ أم أن الصبي الصغير الواقف تحتها جائع إليها ؟ .

ليس ثمة سبب مباشر. فالأمر بأجمعه نتيجة لكل هذه الظروف التي يحدث بمقتضاها كل حادث حيّ عضوى معقد . وعالم النبات الذى يقرر أن التفاحة سقطت نتيجة لتحلل النسيج الخضرى مصيب كالصبي الذى يعلن ، وهو واقف تحت الشجرة ، أن التفاحة سقطت لأنه أراد أن يأكلها ودعا بأن ينالها .

مصيب ومخطىء على السواء من يقول إن نابليون ذهب إلى موسكو لأنه أراد أن يذهب ، ودالت دولته لأن ألكسندر رغب في أن تدول دولته . ومصيب ومخطىء على السواء من يزعم أن سقوط جبل يزن ملايين الأطنان ناتج عن آخر ضربة معول أهوى بها آخر عامل . وفى أحداث التاريخ ليس من يسمون بالعظماء إلا بطاقات توصل بالحادث وتعطيه اسما ، ولا ارتباط لهم بالحادث إلا كارتباط هذه البطاقات .

فكل عمل من أعمالهم وإن بدا صادراً عن إرادتهم الحرة هو فى دلالته التاريخية خارج عن نطاق الإرادة ، ومرتبط بالاتجاه العام للتاريخ ، وفى ثم فهو مقدر منذ الأزل .

وكما أن الشمس وكل ذرة من الأثير كون كامل فى ذاته ، وهى

فى الوقت نفسه لا تعدو أن تـكون ذرة فى الـكل العظيم الذى لا يمـكن أن يدركه الإنسان ، فـكذلك كل فرد يحمل فى داخله أهدافه الخاصة ، ويخدم فى الوقت ذاته الهدف العام الذى لا يمـكن أن يدركه الإنسان .

تقف نحلة على زهرة ، وتلسع صبيا . ويخاف الصبي من النحلة ، ويقول إن غرض النحل هو أن يلسع الناس .

ويتأمل الشاعر النحلة وهى ترشف كأس زهرة ، ويقول لنا إن غرض النحلة هو أن تمتص فى باطنها شذى الأزهار .

ويلاحظ النحّال أن النحلة تجمع اللقاح وتعود به إلى الخلية فيقول إن غرض النحل هو صنع العسل .

ويلاحظ نحال آخر عادات السرب ملاحظة أدق ، فيقول إن النحلة تجمع اللقاح لغذاء صغارها واستغلال الملـكة ، وإن غرض النحل هو حفظ النوع .

ويلاحظ عالم نباتى أن النحلة حين تطير بغبار زهرة خنثى إلى ميسم زهرة أخـــرى ، تلقح هذه الزهرة ، فيرى فى ذلك غرض النحلة .

ويعنى عالم آخر بملاحظة هجرة النباتات ، فيرى إن النحلة

تساعد على هذه الهجرة ، ويقول هذا النظّار الجديد إن هذا هو غرض النحلة .

ولكن الغرض الأخير للنحلة ليس منحصراً فى أول الأغراض التى يستطيع العقل البشرى اكتشافها ، ولا فى ثانيها ولا فى ثالثها .

وكلما ارتقى العقل البشرى فى جهوده لاكتشاف هذه الأغراض وضح أن الغرض الأخير يفوت إدراك الإنسان .

وكل ما يستطيع الإنسان ملاحظته هو الترابط بين حياة النحلة وسائر ظواهر الحياة . وكذلك الحال بالنسبة إلى أغراض الشخصيات التاريخية والشعوب .



أفكار تولستوى الأخلاقية

فى قالب الخيـــال

قصص قصيرة

نيقولا العصا

(نيكولاى پالكين)

قضى ليلته فى بيت جندى له من العمر خمسة وتسعون عاما ؛ خدم فى عهدى ألكسندر الأول ونيقولا الأول .

— ماذا ياأبتِ ؟ هل تريد أن تموت ؟

— أموت ؟ ليتنى أموت ! كنت أخافه أولا ، ولكنى الآن لا أسأل الله غير شىء واحد .. أن ينعم على بالاعتراف والقربان ، فذنوبى كثيرة .

— وماذا عسى أن تكون ذنوبك ؟

— تسألنى ؟ ألا تعلم متى خدمت ؟ فى أيام نيقولا . وهل كان الجيش أيامها كما هو اليوم ؟ كيف كانت الحال فى تلك الأوقات ؟

إن بدنك يقشعر حين تفكر كيف كانت . بل إننى أستطيع أن أتذكر أيام ألكسندر . كان الجنود يذكرون ألكسندر بالخير . كان الناس يقولون : لقد كان رحيما .

ورجعت بذكراتى إلى أيام ألكسندر الأخيرة ، عندما كان عشرون رجلا من كل مائة يجلدون حتى الموت . لابد أن نيقولا كان رحيما حقاً إذا كان ألكسندر قد سمى رحيما بالنسبة إليه .

قال الشيخ :

ــ ثم خدمت فى أيام نيقولا .

وجاشت نفسه ، وانطلق يتكلم :

ــ كيف كانت الحال فى تلك الأيام ؟ فى تلك الأيام كانوا يستقلون أن ينزلوا سراويلهم من أجل خمسين جلدة. مائة ، ثلاثمائة ــ كانوا يجلدون الناس حتى الموت !

قال ذلك برهبة وجزع ، مازجهما شىء من الفخر بروائع الماضى .

ــ وعندما كانوا يستعملون العصا ! لم يكن يمر أسبوع دون أن يضربوا رجلا أو رجلين من الكتيبة حتى الموت . اليوم لا أحد يعرف ماذا تعنى العصا حقا. أما فى تلك الأيام فقد كانت الكلمة فى أفواه الرجال دائماً أبداً : « العصا ! العصا ! »

وأطلق جنودنا على نيقولا لقب العصا . نيقولا بافلوفتش ،

ولكن الناس كانوا يقولون دائماً نقولا العصا. كان هذا هو اسمه الثانى. ومضى الشيخ قائلا :

ـ عندما تفكر فى تلك الأيام . . . العمر انتهى ، والموت قريب، وعندما تفكر ثانية فى تلك الأيام ينقبض صدرك . كانت الطاعة هى كل شىء . تضرب مائة وخمسين عصا بسبب جندى (كان الرجل ملازماً وضابط صف ، وقد أصبح الآن فى رتبة رئيس) فتضربه مائتين ، ولا تُشفى جروحك بذلك ولكنك تعذبه . . حرام ، حرام !

كان الملازم يضرب الجندى حتى الموت . يظل يدق بكعب البندقية أو بقبضته على موضع واحد ، على صدره أو على رأسه ، ويموت الرجل. ولا يسأل أحد. يموت الرجل من الضرب ، ويكتب الرئيس : « مات قضاءً وقدرا » ، وينتهى الأمر . وهل كنت أعقل ذلك وقتئذ ؟ المرء يفكر فى نفسه فقط . والآن لا أفعل إلا أن أتقلب على قبة الفرن ، ولا أقدر أن أنام ليلا ، وأفكر وأفكر ، وأرى كل شىء بوضوح مرة أخرى. سعيدٌ من كتب له أن يتناول القربان كما أوصى المسيح ، وينال المغفرة . وإلا فإن الفزع يتملكك . عندما تفكر فى كل ما قاسيته، وما قاساه أناس آخرون بسببك ، لا تحتاج إلى جحيم ، فإن ذلك شر من الجحيم والشيطان .

وتمثلتُ لخيالى الذكريات التى لا بد أن تراود الشيخ الفانى فى وحدته، وتألمت. فكرت فى الأشياء المخيفة التى كان لا بد أن يشارك فيها غير الضرب، كيف كان عليه أن يطارد الناس حتى الموت بجَلْدِهم فى الصف، ورميهم بالرصاص؛ وبالتقتيل ونهب المدن وقت الحرب (كان ممن اشتركوا فى الحملة البولندية) وسألته عن جميع هذه التفاصيل.

سألته عن الجلد فى الصف. فحدثنى طويلا عند هذا الإجراء المخيف. كيف كان الرجل يُجَر مقيداً بين الجنود الذين صفوا صفين متقاربين وفى أيديهم السياط، وكيف كانوا كلهم يَضْرِبون، والضباط يمشون خلف الجنود وهم يصيحون: «اضرب بشدة! اضرب بشدة!».

كان الرجل يصرخ بهذه الجملة فى نبرة الأمر، فترى أنه يجد فى تذكُّره لهذه النبرة وإعادته لها نوعا من اللذة.

وحدثنى عن جميع التفاصيل دون أن يبدو عليه ظل من ندم، وكأنه يصف كيف كانت الثيران تُذبح ولحمها يطهى.

ولما حاولت أن أوقظ فيه شيئا من الندم لكل هذه الذكريات استولت عليه دهشة لم تلبث أن تحولت إلى استنكار. قال:

ـــ لا لا. لماذا؟ لقد كان هذا كله عرفا متبعا. هل كنت

مذنبا ؟ هكذا كان يقضى القانون .

وأبدى مثل هذا الهدوء والخلو من كل أسف لذكر الفظائع التى اشترك فيها ورآها تجرى ألف مرة فى تركيا وپولندا .

ماذا عسى أن يشعر الشيخ إن فهم الأمر الذى ينبغى أن يتبين له وهو على عتبة الموت : أنه ليس ثمة واسطة — ولا يمكن أن تكون — بين ضميره وبين الله فى هذه اللحظة ؛ وأنه لم يكن ثمة وسيط بينهما — وما كان يمكن أن يكون — فى اللحظة التى كان يؤمر فيها أن يعذب الناس ويقتلهم ! ماذا عسى أن يشعر إن فهم أنه ليس ثمة ما يمكن أن يكفر عن الشر الذى أنزله بالناس حين كان فى مقدوره ألا ينزله بهم ! إن فهم أن هناك قانونا أبديا كان يعرفه دائما وكان لزاما عليه أن يعرفه — القانون الذى يأمر بالحب والإحسان إلى الناس ؛ وأن ما سماه قانونا كان خدعة كافرة سافرة ما كان ينبغى أن يخضع لها ! فظيع أن تفكر فى الصور التى تمر بعقله خلال لياليه المؤرقة على قبة الفرن ، والقنوط الذى لا بد أن يشعر به لو درى أنه حين كان فى مقدوره أن يفعل الخير أو الشر للناس لم يفعل إلا الشر ، وأنه حين فهم الآن ما الخير وما الشر لم يعد فى مقدوره أن يفعل شيئا ، إلا أن يشعر بعذاب الندم الذى لا يغنى ! إن آلامه تكون فظيعة لو درى .

ولماذا نريد أن نعذبه ؟ لماذا نوجع ضمير شيخ فانٍ ؟ أليس الأفضل أن نهون عليه ؟ لماذا نثير الناس ونعيد ما مضى وانقضى منذ أزمان ؟

مضى وانقضى ؟ أى شيء مضى وانقضى ؟ أيكون شيء قد انقضى ونحن لم نبدأ بعد فى استئصاله وعلاجه ، بل لم نزل نتردد فى تسميته باسمه الصحيح ؟

نحن لا نشك مطلقا أن إحراق المتهمين بالإلحاد واللجوء إلى التعذيب فى التحقيق كانا قسوة وجنونا . وكل طفل يدرك أن هذين العملين لم يكن لهما جدوى . ولكن رجال تلك الأيام كانوا لا يرون ذلك ، وكان العلماء الأذكياء يقررون أن التعذيب ضرورة للمجتمع البشرى ، أو شر لا بدمنه كالجلد والرق . وقد مضى ذلك الزمن ، وأصبحنا لا نكاد نستطيع أن نتخيل كيف كانت عقول أولئك الناس القادرين على مثل هذه الأضاليل . ولكن هذا هو الذى كان فى كل العصور ، وهذا هو الذى يكون فى عصرنا ولا ريب ، إلا أننا — مثلهم — عمى عن الفظائع التى نرتكبها .

أين التعذيب عندنا ؟ وأين العبودية ؟ وأين العصا ؟ تبدو لنا هذه الأشياء كما لو كانت غير موجودة . كما لو أنها وجدت مرة ثم ذهبت مع الزمن . ولكن هذا هو ما يبدو لنا فحسب ، لأننا

لا نريد أن نفهم الماضى ، بل نغمض عيوننا حتى لا نراه .

أما إذا نظرنا خلفنا إلى الماضى نظرات فاحصة ، فإن موقفنا الحاضر وأسبابه سوف تتبدى لنا . وإذا ما سمينا الإحراق والوسم والتعذيب وساحات الإعدام والقرعة العسكرية بأسمائها الحقيقية فسوف نجد على الفور الأسماء الحقيقية للسجون والإصلاحيات والتجنيد العام للحرب ، وللمدعين العموميين ورجال الشرطة ، وعندما نكف عن القول : لماذا تتذكر الأيام الخالية ؟ سنرى ونفهم ما يجرى اليوم .

عندما نرى من الجنون والقسوة أن نقطع رقاب الناس ، وأن ننتزع الحقيقة من أفواههم بكسر مفاصلهم ، سنرى مثل هذا الجنون وهذه القسوة أو أكثر منهما فى تعليق الناس على أعواد المشانق أو قذفهم فى حبس انفرادى أشبه بالموت أو أشد ، وفى البحث عن الحقيقة عن طريق المحامين المأجورين والمدعين العموميين .

وعندما نفهم أن من الجنون والقسوة قتل رجل ضال ، سنفهم أيضاً أنه أشد جنوناً وقسوة أن نلقى مثل هذا الرجل فى إصلاحية للقضاء عليه قضاءً مبرماً . وعندما نفهم أن من الجنون والقسوة حشد الفلاحين للخدمة العسكرية ووسمهم بالنار كالماشية ، سنرى مثل هذا الجنون وهذه القسوة فى دعوة كل رجل فى الحادية

والعشرين إلى الجندية . وعندما ندركُ مبلغ ما هنالك من جنون وقسوة فى نظام الحرس القديم ، سيتجلى لنا كل ما هناك من جنون وقسوة فى نظام الخفراء والدوريات .

عندما نكف أخيراً عن إغماض عيوننا عن الماضى وقول : لماذا نتذكر الأيام الخالية ؟ سنرى أن لعصرنا فظائعه أيضاً ، وإن تكن فى أشكال جديدة .

نحن نقول : لقد فرغنا من كل هذا ، لم يبقَ ثمة تعذيب اليوم لم يبق ثمة مثيلات للداعرة « كاترين » بعشاقها المطلق السلطان ، لم يبق ثمة عبودية ولا ضرب حتى الموت . ولكن هذا هو مايبدو لنافقط . فهناك ثلثمائة ألف رجل فى السجون والسخرة ، يُحشرون فى حجرة صغيرة منتنة ، ويموتون ميتة بطيئة جسما وروحا . نساؤهم وأطفالهم يتركون للجوع ، وأولئك الرجال محبوسون فى كهوف الظلم فى السجون ومستعمرات المذنبين ، ولا يفيد من الأسر القاسى المجنون إلا الحراس ، والسادة المطلقو السلطان على هؤلاء العبيد .

وهناك عشرة آلاف من « ذوى الأفكار الخطرة » فى المنفى يحملون تلك الأفكار الخطرة إلى أقصى أرجاء روسيا . وهم يفقدون رشدهم ويشنقون أنفسهم . وألوف فى القلاع يقتلهم السجانون

سراً أو يدفعونهم إلى الجنون بالحبس الانفرادى . وملايين الرجال تُطحن أجسامهم وأرواحهم فى عبودية أصحاب المصانع . ومئات الألوف من الرجال كلَّ خريفٍ يتركون أسرهم وأزواجهم الشوابّ ويتعلمون القتل ويسيرون بنظام نحو الانحطاط .

لا حاجة إلى ذكاء كثير لكى نرى أن يومنا مثل الأمس ، وأن عصرنا يمتلىء بالفظائع نفسها ، وأنه سيأتى يوم تثير فيه قسوتها وجنونها دهشة الأجيال القادمة . إنه المرض نفسه ، وما هو بمرضٍ أولئك الذين يستفيدون من هذه الفظائع .

فليستفيدوا مائة مرة أو ألف مرة . فليبنوا الأبراج والملاعب وليدعوا إلى حفلات الرقص وليمتصوا دماء الشعب . ليَجْلِد «العصا» الناس حتى الموت وليشنق «پوبيدونستوف»[1] و«أورزفسكى» المئات سراً فى القلاع . ولكن ليقفوا عند هذا الحد ، لا يُحطمُنّ روح الشعبُ ، ولا يخدعنه بإرغامه على الاشتراك فى ذلك كله كما فعل صاحبى هذا الجندى القديم !

إن المرض المخيف هو فى الادعاء بأنه يمكن أن يكون ثمة قانون للإنسان أقدس أو أسمى من قانون حب الجار ؛ فى الخدعة التى

---

(١) قانونى روسى . وصل إلى مراكز عالية فى الدولة فى عهد القيصر ألكسندر الثالث ، وأدت أفكاره المحافظة إلى اشتعال حركة الاضطهاد الدينى . (المترجم)

تخفى عن ألإنسان انه قد يجوز له أن يفعل أشياء كثيرة ليرضى رغبات رجال آخرين ، ولـكن هناك شيئاً واحداً يجب عليه بوصفه إنسانا ألا يفعله إرضاءً لرغبة إنسانٍ آخر : وذلك أن يعمل ما نهى الله عنه ، فيعذب إخوته البشر ويقتلهم.

منذ ألف وثمانمائة عام سأل الفريسيون : هل يجب أن يدفعوا الضرائب لقيصر ، فأجيبوا بهذه الـكلمات : أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

ولو كان فى الناس أثارة من إيمان ، ولو كانوا يشعرون بأقل ما يجب عليهم نحو الله ، لشعروا بواجبهم قبل كل شىء نحو ما علمه الله للناس بالـكلمات حين قال : « لا تقتل » ، وحين قال : « فـكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضا بهم » ، وحين قال « تحب جارك كنفسك » . بل نحو ما نقشه الله فى قلب كل إنسان : حب الجار والإحسان إليه ، وكراهة قتل أخيه الإنسان وتعذيبه .

لو كان الناس يؤمنون بالله لما نكلوا عن أول واجباتهم نحوه : ألا يعذِّبوا ولا يقتلوا ، ولـكان للـكلمات : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله — معنى واضح محدد عندهم ، ولقال الرجل المؤمن لقيصر أو لمن يكون : — إلا ما نهى الله عنه .

إن أراد الإمبراطور مالى فليأخذ . منزلى ، مجهودى ، فليأخذ . أطفالى ، نفسى ، فليأخـــذ . فلا شيء منها لله . أما إن أرادنى الإمبراطور على أن أرفع يدى بالعصا وأهوى بها على ظهر جارى فهذا لله . عملى هو حياتى ، هو ما أحاسب عليه أمام الله ؛ وما نهانى الله عنه فلن أفعله ولو أراده الإمبراطور . لا أستطيع أن أوثق إنسانا أو أسجنه أو أضطهده أو أقتله — كل ذلك هو حياتى ، وحياتى لله ، ولا أستطيع أن أعطيها لغير الله .

إن الكلمات : أعطوا ما لله لله ، تعنى لنا أن نعطى الله شموعا وصلوات ، كل ما لا يحتاج إليه أحد فما ظنك بالله . أما الباقى كله ، حياتنا كلها ، محراب روحنا ، كل ما لله ، فقد أعطيناه لقيصر ، أى أننا أعطيناه لرجل كريه بعيد (فهكذا كان اليهود ينظرون إلى قيصر) .

أليس هذا مخيفا ؟ أيها الناس ! تدبروا أمركم !



ثلاثة أمثال

المثل الأول

كان هناك مرج جميل ؛ وقد نبتت فيه الحشائش . وكان أصحاب المرج يجزونها ولكنها لا تزال تزيد . وذات يوم جاء زارع صالح حكيم إلى أصحاب المرج ونصحهم نصحا كثيراً نافعا . وقال لهم أيضا إن الحشائش يجب ألا تُجَز فإن ذلك لا يزيدها إلا انتشارا ، لكنْ يجب أن تُنتزع من جذورها .

وسواء أنسى أصحاب المرج من بين ما وصاهم به الزارع الصالح وصيته لهم ألا يجزوا الحشائش بل ينتزعوها من الجذور ، أم فكروا لأنفسهم ورأوا ألا يتبعوا هذا الأمر ، فإنهم على كل حال أهملوا النصيحة ألا يجزوا الحشائش بل ينتزعوها من الجذور . وعملوا كأنهم لم يسمعوا هذه النصيحة قط ، واستمروا يجزون الحشائش ويساعدون على نموها بذلك . ومع أن الناس ظلوا فى السنين التالية يأتون ويذكرون أصحاب المرج بنصيحة الزارع الصالح الحكيم ، فإن هؤلاء لم يكفوا عن عملهم ، واستمروا على ما كانوا عليه ، حتى أصبح جز الحشائش عند ظهورها عادة

متبعة ، بل شعيرة مقدسة ، والمرج لا يزال يكتظ بالحشائش حتى غلبت عليه . وشكا الناس وفكروا فى وسائل كثيرة للإصلاح ، وكانت الطريقة الوحيدة التى لم يستعملوها هى تلك التى نصح بها الزارع الصالح منذ سنين طويلة . ثم اتفق آخر الأمر أن رجلاً لاحظ ما صار إليه المرج من حال سيئة ، واكتشف بين وصايا الزارع المنسية قوله إن الحشائش يجب ألا تجز بل تقتلع من الجذور ، فأوضح لأصحاب المرج أنهم يعملون عملاً غير رشيد ، وأن الزارع الصالح الحكيم قد بين لهم منذ زمن طويل خطأهم فيما يعملون .

فماذا حدث ؟

لم يختبروا صدق النذير ، ليكفوا عن جز الحشائش إن كان صحيحاً ، أو يثبتوا للرجل فساد زعمه إن كان خطأ . ولم يقرروا أن وصايا الزارع الصالح الحكيم كانت بغير أساس ، أو أنهم غير ملزمين باتباعها . لم يفعلوا شيئاً من ذلك . ولكنهم ضاقوا بالنذير ، وأغلظوا القول للرجل ، ودعاه بعضهم ملتاثاً مغروراً لأنه حسب نفسه الوحيد بين البشر الذى فهم وصية الزارع ؛ ودعاه غيرهم متنبئاً أفاكاً خبيثاً . ونسى آخرون أنه لم يأت برأى من عنده ، بل ذكّر بوصايا الزراع الحكيم الذى يبجله الجميع ، فزعموه شخصاً

خطراً يريد نشر الحشائش وحرمان الناس من مرجهم . فهو يقول إن الحشائش يجب ألا تجز ، وإذا لم نقض عليها — هكذا كانوا يتكلمون ، متناسين أن الرجل لم يقل إن الأعشاب يجب ألا يقضى عليها ، بل إنها يجب أن تقتلع بدلا من أن تجز — فإن الحشائش سوف تزحم المرج وتتلفه إتلافاً . ولماذا أعطينا المرج إن كنا سنزرعه بالحشائش ؟

ورسخ الزعم بأن هذا الرجل ملتاث أو أفاك ، أو مريد للبشرية الشر ، فكان كل واحد ينبذه ويستهزئ به . ومهما أعلن الرجل أنه لم يرد نشر الحشائش بل على العكس كان يرى القضاء عليها من أول ما ينبغى أن يشتغل به الفلاح ، كما عَلّم الزارع الصالح الحكيم الذى لم يكن هو إلا مردداً لكلماته ، مهما كرر الرجل هذا القول فإن الناس لم يصغوا إليه ، إذ كان قد تقرر أنه يسيء تأويل كلمات الزارع الصالح ، أو أنه شرير يحض الناس على حماية الحشائش وإنمائها بدلا من القضاء عليها .

كان هذا مَثَلى حين أشرت إلى وصية الإنجيل : « لا تقاوموا الشر . » لقد علم المسيح هذه الوصية ، وعلمها من بعده كل تلاميذه المخلصين . وسواء أأهمل الناس الوصية أم لم يفهموها أم شق عليهم أن يطيعوها ، فقد كانت كلما مر عليها الزمن ازداد الناس لها نسيانا ،

وازدادت حياتهم عنها بعداً ، حتى بلغ الأمر ما هو عليه الآن ، فأصبحت هذه الوصية تبدو جديدة لم يسمع بها وغريبة بل حمقاء . ولقيتُ ما لقي الرجل الذى رد الناس إلى الوصية القديمة ، وصيـــة الزارع الصالح الحكيم ، ألا يجزوا الحشائش بل ينتزعوها من الجذور .

وكما تناسى أصحاب المرج أن النصيحة لم تكن بترك القضاء على الحشائش بل بأن يقضوا عليها بطريقة رشيدة ، وقالوا : لن نسمع لهذا الرجل ، إنه ملتاث ، يأمرنا ألا نجز الحشائش بل نتركها تنمو — كذلك قال الناس حين سمعوا نذيرى أن تعليم المسيح يقضى ألا يُقاوَم الشر بالعنف بل يقتلع فروعاً وأصولا بالحب : لن نسمع لما يقول ، إنه ملتاث ، يشير علينا بأن لانقاوم الشر حتى يتغلب الشر علينا .

لقد قلت إن تعليم المسيح يقضى أن الشر يجب ألا يدفع بالشر ؛ وإن كل مقاومة عنيفة لا تنتج إلا زيادة الشر ، وإن تعليم المسيح يقضى بأن الشر لا يمحوه إلا الخير . باركوا لاعنيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم . أحسنوا إلى مبغضيكم . أحبوا أعداءكم ، فلا يكون لكم عدو .

لقد قلت إن تعليم المسيح يقضى بأن حياة الإنسان كلها ليست

إلا صراعاً مع الشر ، ومحاربة للشر بالعقل والحب ، ومن بين وسائل الحرب جميعاً نفى المسيح الوسيلة الوحيدة غير الرشيدة : محاربة الشر بالعنف التي تعني مقاومة الشر بالشر .

وفُهمت كلماتى هذه كما لو كنت قلت إن المسيح علمنا ألا نقاوم الشر . ووقع هذا التحريف لكلماتى وكلمات المسيح موقع الرضا والترحيب من أولئك الذين بنيت حياتهم على العنف ، وهم من أجل ذلك يعتزون بالعنف . وسلمت الكافة بأن التعليم : لا تقاوموا الشر ، تعليم خاطىء أحمق كافر خطر من كل وجه . ومضى الناس ينتجون الشر زاعمين أنهم يقضون عليه .

المثل الثانى

كان الناس يتجرون فى الدقيق والزبد واللبن وسائر المأكولات . وأراد كل رجل أن يربح أكثر من جاره ويثرى فى أقصر وقت ممكن ؛ فجعلوا يخلطون بضائعهم بشتى العناصر الرخيصة الضارة ؛ يلقون الجبس والجير فى الدقيق ، ويضعون الدهن فى الزبد ، والماء والطباشير فى اللبن . وسارت الأمور كما أحبوا ما دامت الأطعمة بعيدة عن الشارين ؛ فباع التجار بضائعهم لأصحاب الدكاكين ، وباعها أصحاب الدكاكين للباعة الجوالين .

وكانت هناك متاجر ودكاكين كثيرة ، فبدت التجارة رائجة ، واطمأن التجار ورضوا . ولكن المشترين فى المدينة — وهم الذين كانوا لا ينتجون لأنفسهم ما يحتاجون إليه ، وكانوا من ثمة مضطرين إلى شراء كل شىء — أصابهم الضرر ، ووجدوا أنفسهم فى ضيق .

كان الدقيق رديئا ، وكذلك كان الزبد واللبن . ولكن الشارين فى المدينة مضوا يقبلون هذه البضائع المغشوشة إذ لم يكن فى أسواق المدينة أطعمة غيرها ، وعزوا سوء مذاق الطعام وأضراره إلى أنفسهم وإلى الخطأ فى إعداد ما يأكلون . غير أن أصحاب الدكاكين مضوا يزيدون المواد الرخيصة فى بضائعهم .

وطال الزمن على هذه الحال ، وسكان المدينة كلهم يعانون منها ، ولكن أحدهم لا يجرؤ على التصريح بما يعانيه .

ثم جاءت امرأة من الريف كانت تقدم لأسرتها دائماً أطعمة مصنوعة فى البيت . وكانت هذه المرأة قد قضت عمرها تعد الطعام ، وإن لم تكن طاهية من الطراز الأول فقد كانت على أية حال تعرف كيف تخبز العيش وتطهو وجبة طيبة .

اشترت هذه المرأة أطعمة من المدينة ، وبدأت تخبز وتطهو . فكان العيش لا يصلح عند الخبز بل يتشقق ويتفتت ، والفطائر

المنضجة فى الدهن تخرج كريهة المذاق ، وإذا تركت المرأة اللبن يتخثر لم تتكون عليه قشدة . فارتابت المرأة على الفور فى جودة الأطعمة ، وفحصتها بعناية ، فتحقق ارتيابها ، إذ وجدت فى الدقيق جيرا ، وفى الزبد دهنا ، وفى اللبن طباشيرا . ولما ثبت لها أن جميع الأطعمة فاسدة ذهبت إلى الدكان . ووبخت الباعة توبيخاً مرا ، وطالبتهم بأن يبيعوا بضائع جيدة صحية غير مغشوشة أو يتركوا التجارة ويغلقوا دكاكينهم . ولكن أصحاب الدكاكين لم يبالوا بالمرأة ، وقالوا لها إن المدينة كلها لم تزل تشترى منهم منذ سنين كثيرة ، بل إنهم ظفروا بالجوائز تقديراً لبضائعهم ، وأشاروا إلى الأوسمة على لافتاتهم .

وأصرت المرأة قائلة : لا حاجة لى بالأوسمة ، إن حاجتى إلى أطعمة جيدة ، حتى إذا أكلت أنا وأبنائى لم تضر معداتنا .

قال أصحاب الحوانيت : مالك يا خالة ؟ لعلك لم ترى فى حياتك دقيقاً جيداً ولا زبدة جيدة — وأخذوا يعرضون عليها الدقيق الأبيض الناصع فى صناديقه المدهونة بالزيت ، والزبدة المقلدة الحقيرة المنضدة فى أطباق جميلة ، والسائل الأبيض فى القوارير اللامعة الشفافة .

فأجابت المرأة : أنا أعرف حقيقة هذا ، لأنى لم أفعل شيئا طول حياتى إلا الحصول على طعامى لآكله أنا وأطفالى . إن بضائعكم

مغشوشة ، وهذا هو البرهان — وأرتهم الخبز الردىء ، والدهن فى الفطائر ، والطبقة الراسبة فى أسفل اللبن — إن بضائعكم يجب أن ترمى فى النهر أو تحرق ، وتحل محلها أشياء صالحة .

وظلت المرأة واقفة أمام الدكان لا تكف عن الصياح ، وكانت تردد الشىء نفسه لكل شارٍ يمر ، حتى بدأ الزبائن يساورهم الشك .

ورأى أصحاب الدكاكين أن المرأة الجسور قد تضر بتجارتهم ، فقالوا للزبائن : انظروا يا قوم إلى هذه المرأة المجنونة . تريد أن يموت الناس من الجوع . تريد أن يرمى الطعام فى النهر أو يحْرَق . وماذا تأكلون إن فعلنا كما تقول ، ولم نعد نبيع لكم طعاما ؟ لا تسمعوا لها . إنها ريفية جاهلة لا تعرف شيئاً عن الأطعمة ، بل تنتقدنا لأنها تحسدنا ، لأنها فقيرة تريد أن يكون كل إنسانٍ آخر فقيراً مثلها .

هكذا خاطب أصحاب الدكاكين الجمع الذى احتشد ، مخفين أن المرأة إنما أرادت إتلاف الأطعمة لتحل أشياء جيدة محل الرديئة .

وثار الجمع بالمرأة وراحوا يسلقونها بألسنتهم ، ومهما قالت إنها لم ترد إتلاف المؤن بل على العكس إنها أنفقت كل عمرها تعد الطعام لغيرها ولنفسها ، وإنها لم تطلب إلا أن يمتنع الناس الذين

تكفلوا بتموين إخوانهم عن تقديم السم لهم فى الأشياء الضارة التى يقدمونها على أنها طعام — مهما تكلمت أو قالت فما كان الناس ليسمعوا ، فقد تقرر أنها تريد أن تسلب الناس أقواتهم .

كان هذا مَثَلى ومَثَل أفكارى عن العلم والفن فى عصرنا . فقد عشت على هذا الطعام عمرى ، وجهدت أن أطعم الآخرين منه كلما استطعت ، مُتْقِناً أو غير متْقِن . وبما أنى أراهما طعاماً لا متجراً ولا ملهىً ، فأنا أعرف معرفة لا شك فيها متى يكون الطعام طعاما ومتى لا يكون طعاما إلا بمظهره . وعندما ذقت الطعام الذى يباع فى سوق العلم والفن فى عصرنا وحاولت أن أطعم منه صغارى وجدت أن معظمه ليس بطعام . وعندما قلت إن العلم والفن اللذين يبيعهما البائعون فى سوق الفكر دهن أو على الأقل مغشوشان بأشياء غريبة عن العلم الحقيق والفن الحقيق ، وإنى عرفت ذلك لأن المنتجات التى اشتريتها من سوق الفكر كانت عسيرة الهضم بل ضارة بى وبأهلى — عندما قلت ذلك راح الناس يوبخوننى ويشتموننى ويملئون أذنى بأنى ما قلته إلا لأنى جاهل لا أعرف كيف أتناول هذه الأشياء الرفيعة . ولكننى عندما بدأت أثبت أن الناس الذين يتجرون فى هذه البضائع الفكرية لا يكفون عن اتهام بعضهم البعض بالغش ، وعندما نبَّهت إلى أن شتى الأشياء الرديئة الضارة كانت تقدم للناس دائما تحت اسم العلم والفن ،

وأن ثمة خطراً كبيراً فى أن يكون الأمر فى أيامنا كما كان بالأمس ، وأن الأمر جد كل الجد ، وأن سم الفكر أضر ألف مرة من سم الجسم ، ولذلك يجب أن تُفحص المنتجات الفكرية التى تقدم لنا على أنها طعام أتم الفحص ، وينفى منها كل زائف ضار — عندما قلت ذلك لم يكتب إنسانٌ واحد بياناً واحداً أو كتابا واحداً ليدحض كلماتى . ولكن الناس فى الدكاكين صاحوا بى كما صاحوا بالمرأة : إنه مجنون ! يريد القضاء على العلم والفن وهما حياتنا . احذروه ولا تسمعوا له ! تعالوا إلينا ، إن لدينا أحدث البضائع الأجنبية .

المثل الثالث

كان السائحون يقطعون الطريق . ثم اتفق أنهم خرجوا عن الجادة ، وأصبح الممر الذى عليهم أن يسيروا فيه خشنا ، يمر خلال مستنقعات وأدغال وأشواك ، وتعترضه عروق من الخشب ؛ والتقدم لا يفتأ يزداد عسراً .

وهنا انقسم السائحون طائفتين : طائفة قررت أن تواصل السير فى الاتجاه الذى أخذوا فيه ، وقالوا لأنفسهم وللآخرين إنهم لم يضلوا قط عن الوجهة الصحيحة ، وهم لا شك واصلون إلى الغاية من رحلتهم . وطائفة قررت أنهم يجب أن يبحثوا عن الطريق ،

لأن الاتجاه الذى يسيرون فيه قد تبين خطؤه ، ولو لا ذلك لبلغوا مقصدهم منذ زمن طويل . ولكنهم ليبحثوا عن الطريق يجب أن يسرعوا بقدر ما يستطيعون فى كل اتجاه . وهكذا تفرق السائحون على حسب الرأيين : فريقا قرر أن يمضى قدما ، وفريقا قرر أن يتقدم فى كل اتجاه . وكان هناك رجل واحد لم يوافق على أىٍّ من الرأيين . فقال إن عليهم قبل أن يتقدموا فى الاتجاه السابق نفسه ، أو يهرولوا فى كل اتجاه أملاً فى العثور على الطريق الصحيح ، عليهم أن يقفوا ليفكروا فى الأمر ، وبعد أن يفكروا فيه يتبعون أحد السبيلين . ولكن المسافرين كانوا مهتاجين من تَجوَالِهم ، جزعين لحالتهم ، شديدى الرغبة فى تعليل أنفسهم بالأمل أنهم لم يضلوا ، بل انحرفوا عن الطريق قليلاً وسرعان ما سيهتدون إليه ؛ وكانوا قبل ذلك كله حريصين غاية الحرص على أن يهدئوا خوفهم بمواصلة السير . فأنكرت الطائفتان رأى الرجل ، وعنفوه وازدروه وقال جماعة منهم إن هذه النصيحة هى خطة العجز والجبن والكسل .

وقال غيرهم : ما أحسنها طريقة أن نصل إلى غايتنا بالوقوف هنا والكف عن السير ! وقال آخرون : هذا هو معنى أن تكون إنسانا . لهذا منحنا القوة ؛ لكى نحارب ونصل ، ونتغلب على الصعاب بدلاً من أن نخضع ونستكين .

ومهما قال الرجل الواحد الذى خرج على الجماعة إن السير فى الاتجاه الخطأ لن يقربهم من غايتهم بل سوف يبعدهم عنها ، وإن التقلب من وجهة إلى وجهة لن يبلغهم مقصدهم أيضا ، وإن الطريقة الوحيدة لبلوغ الغاية هى أن يستنبئوا الشمس والنجوم عن وجهتهم ثم يسيروا فى هذه الوجهة ، وإنهم كى يفعلوا ذلك يجب أن يقفوا — يقفوا لا ليجمدوا بل ليجدوا الطريق الصحيح ثم يتقدموا على هدى فى هذا الطريق ، ولكنهم ليفعلوا كِلًا من هذين الأمرين يجب عليهم أولاً أن يقفوا ويفكروا — مهما قال ذلك فإن أحداً لم يصغ إليه .

ومضت الطائفة الأولى فى الاتجاه الذى أخذت فيه . وانطلقت الطائفة الثانية من ناحية إلى ناحية على غير هدى ، ولكن إحداهما لم تقترب من هدفهم المشترك قليلا ولا كثيراً بل إنهم لم يخرجوا من الأدغال والأشواك ، وما برحوا يتخبطون بينها .

هذا مَثَلى حين حاولت أن أبدى شكى فى أن الطريق الذى أدى بنا إلى حرج المسألة العمالية ومستنقع التسلح المستمر حيث نوشك أن نتردى لم يكن هو الطريق الذى ينبغى أن نقطعه ، واعتقادى أن من الجائز جداً أن نكون قد خرجنا عن الجادة ، وأننا لذلك يجب أن نتوقف عن الجولان الذى تبين أنه يطوح بنا ،

ونسأل أنفسنا قبل كل شيء راجعين إلى الأساس الشامل الخالد من الحق المنزل : هل نحن نسير فى الاتجاه الذى نويناه ؟

ولم يقدم أحد جواباً عن هذا السؤال . لم يقل أحد : « إننا غير مخطئين فى اتجاهنا . إننا لا نتخبط على غير هدى بل نحن على ثقة من سبيلنا لكيت وكيت من الأسباب . » ولم يقل إنسان : « لعلنا أخطأنا السبيل ، ولكن لدينا وسيلة لاتخيب لتصحيح أخطائنا دون أن نكف عن السير . » لم يقل أحد شيئاً من هذا ، بل استشاطوا كلهم غضباً ، وأظهروا أنهم جرحوا جرحاً عميقاً ، وأسرعوا يتصايحون ليغرقوا صوتى الوحيد : ألا يكفينا ما نحن فيه من كد وتعب حتى يأتى رجل يدعو إلى الجمود والخمول وترك العمل ! » بل إن بعضهم أضافوا متعجبين : « الجمود ! » وصاحت الطائفتان — من آمنت بأن الخلاص فى مواصلة السير فى الاتجاه نفسه مهما يكن ، ومن رأت الخلاص فى التقدم على غير هدى فى كل اتجاه : « لاتسمعوا له — تقدموا ! خلفنا ! »

لماذا نقف ؟ لماذا نفكر ؟ أسرعوا ، سينتهى كل شيء كما ينبغى .

لقد خرجت البشرية عن الجادة . ولعلك تحسب أن أول جهد وأهم جهد يجب بذله ليس الإسراع فى التقدم الذى أدى بنا إلى ما نحن فيه من شر ، بل الوقوف . ولعلك تحسب أن الوقوف وحده

هو الذى يمكن أن يتيح لنا فهم موضعنا وكشف الاتجاه الذى يجب أن نتبعه لنبلغ السعادة الحقيقية ، لا سعادة الأفراد ولا سعادة جماعة من الجماعات ، بل السعادة الحقيقية الشاملة ، سعادة البشرية التى يسعى إليها كل الناس ، ويتوق إليها قلب كل إنسان . لكن ماذا يحدث ؟

ينظر الناس فى كل فكرة يمكن أن تخطر على البال ، إلا الفكرة الوحيدة التى قد تكون فيها نجاتهم — أعنى أن يقفوا ولو لحظة ، ولا يمضوا يزيدون متاعبهم يبذل الجهد فى اتجاه خاطىء . يشعر الناس بتعاسة حالتهم ، ويجربون كل وسيلة للخلاص ، ولكنهم يأبون كل الإباء أن يفعلوا الشىء الوحيد الذى لاشك أنه ينقذهم . وإذا نصحتهم أن يفعلوه أسخطهم هذا النصح ما لا يسخطهم أى شىء آخر .

إن كان ثمة بقية شك فى أننا قد ضللنا ، فإن موقف الناس إزاء النذير أن يتدبروا أمرهم يثبت بغاية ما يكون من الوضوح مبلغ ضلالنا المؤيس ، وضياعنا المخيف .

الملك أسرحدون

كان الملك أسرحدون ملك أشور قد فرغ من غزو مملكة الملك ليلى ، ونهب كل المدن وأحرقها ، وحمل جميع السكان إلى بلاده ، وقتل المحاربين ، ووضع الملك ليلى فى قفص .

وبينما كان الملك أسرحدون راقداً على سريره ليلا ، أخذ يفكر كيف يقتل الملك ليلى . وفجأة سمع صوتاً بالقرب منه ، ففتح عينيه ورأى شيخاً معمراً ذا لحية طويلة شهباء وعينين وديعتين . قال الشيخ المعمر :

ـــ هل تريد إعدام ليلى ؟

فأجاب الملك :

ـــ نعم ، غير أنى لم أهتدِ بعد إلى القِتْلة التى سأنزلها به .

قال الشيخ المعمر :

ـــ ولكنك أنت ليلى .

قال الملك :

ـــ هذا غير صحيح ، أنا أنا ، وليلى هو ليلى .

قال الشيخ المعمر :

ـــ أنت وليلى واحد . إنك مخطىء إن حسبت أنك لست ليلى ، وأن ليلى ليس إياك .

قال الملك :

ـــ أنا مخطىء ؟ ألست راقداً هنا على سرير وثير ، يحيط بى العبيد الذين يطيعون أمرى ؟ ألست على أن أولم لأصدقائى غداً كما فعلت اليوم ، بينما يقبع ليلى كطائر فى قفص ، وغدا يتلوى على خشبة التعذيب ويدلع لسانه حتى يموت وتمزق الكلاب لحمه ؟

قال الشيخ المعمر :

ـــ إنك لا تستطيع القضاء على حياته .

قال الملك :

ـــ والأربعون ألف محارب الذين قتلتهم وكدستهم كالجبل ؟ إننى حى وهم لا وجود لهم . أما ترى أنى قادر أن أقضى على الحياة ؟

ـــ وأنى علمت أنهم غير موجودين ؟

ـــ إنى لا أراهم . وفوق هذا إنهم قاسوا العذاب وأنا لم أقاسه . كان مصيرهم سيئا ومصيرى حسنا .

ـــ هنا أيضا تخطىء . لنفسك سببت الألم لا لهم .

قال الملك :

ـــ أنا لا أفهمك .

ـــ أتريد أن تفهم ؟

— نعم أريد ذلك .

فقال الشيخ المعمر :

— إذاً تعال . وأشار إلى حوض ماء .

فنهض الملك وذهب إلى الحوض .

— اخلع ثيابك واخطُ فى الحوض .

ففعل أسرحدون كما أمره الشيخ المعمر .

قال الشيخ المعمر وقد غرف ماء فى إناء :

— إذا بدأت أصب الماء فوق رأسك الآن فاحنِ رأسك تحته .

وأمال الشيخ الإناء فوق رأس الملك ، فأحنى الملك رأسه تحته .

وما كاد الملك أسرحدون يحنى رأسه حتى شعر أنه ليس أسرحدون بل شخصاً آخر ؛ وفى اللحظة التى شعر فيها أنه شخص آخر رأى نفسه راقداً على سرير فاخر وإلى جواره امرأة جميلة . ولم يكن قد رأى هذه المرأة قط ، ولكنه علم أنها زوجته . ونهضت المرأة وقالت له :

— ليلى ، يا زوجى العزيز ، لقد تعبت من عناء الأيام الماضية ، ولذلك نمت أكثر من عادتك ، ولكنى حرست نومك ولم أوقظك . غير أن الأمراء ينتظرون الآن فى البهو الكبير ، فارتد ثيابك واخرج إليهم .

وعرف أسرحدون من هذه الكلمات أنه ليلى ، فلم يدهش ، بل أدهشه أنه لم يعرف ذلك من قبل . ونهض ، وارتدى ثيابه ، ودخل البهو الكبير حيث كان الأمراء فى انتظاره .

وحيا الأمراء ملكهم ليلى بانحناءات عميقة ، ثم ظلوا قائمين حتى أمرهم فاتخذوا مجالسهم أمامه . وبدأ الكلامَ أكبرُهم سنا . لقد تجاوزت إهانة الملك الشرير أسرحدون حد الاحتمال ووجب إعلان الحرب .

ولكن ليلى لم يوافق ، بل أمر بإيفاد الرسل إلى أسرحدون ليحتكموا إلى ضميره ؛ وصرف ليلى الأمراء ثم عين رسله من الأشراف ولقنهم تفصيلات الرسالة التى كان عليهم أن يحملوها إلى الملك أسرحدون .

ولما فرغ من ذلك ، خرج أسرحدون ، الذى كان يشعر بأنه ليلى ، إلى الجبال لصيد حمر الوحش . وابتسم له الحظ فقتل بنفسه حمارين ، ثم عاد إلى داره وأكل وشرب مع أصحابه وشاهد رقصات الجوارى .

وفى اليوم التالى نزل كعادته إلى ساحة القصر حيث كان أصحاب المظالم والشاكون والمتهمون فى انتظاره ، فعقد مجلسه ، ثم خرج ثانية إلى الصيد وهو رياضته المفضلة ، ووفق فى ذلك اليوم إلى قتل لبؤة عجوز وأخذ شبليها .

وبعد الصيد أكل وشرب ثانية مع أصحابه ، واستمتع بالموسيقى والرقص ، وأمضى المساء مع زوجته المحبوبة .

وكذلك مرت الأيام والأسابيع ، وهو ينتظر عودة الرسل الذين بعثهم إلى الملك أسرحدون ، الرجل الذى كانه فى وقت من الأوقات .

وأخيراً عاد الرسل بعد شهر ، وقد جدعت أنوفهم واصطلمت آذانهم .

وبعث الملك أسرحدون إلى ليلى أن ما حدث لرسله سيحدث له أيضاً إن لم يسارع بإرسال جزية من الذهب والفضة وخشب السرو ، وإن لم يحضر بنفسه إظهاراً لطاعته .

ودعا ليلى — الذى كان أسرحدون فى وقت من الأوقات — أمراءه ثانية ، وشاورهم فيما يجب عمله فاتفق الجميع على أنهم يجب ألا ينتظروا هجوم أسرحدون بل يغزوا بلاده . ووافق الملك ، وجعل نفسه على رأس جيشه ، وخرج للقتال . وواصلوا سيرهم سبعة أيام ، والملك يعرض جيشه كل يوم ، ويثبت عزائم جنده .

وفى اليوم الثامن التقى جيشه بجيش أسرحدون فى الوادى الأفيح على ضفاف النهر . وأبلى جنود ليلى بلاء حسناً ولكن ليلى (الذى كان أسرحدون فى وقت من الأوقات) رأى العدو ينحدر

كالنمل من على الجبال ، ويكتسح السهول ، ويوقع بجيشه . فقذف بنفسه فى عربته الحربية إلى أتون المعركة ، وهو يطعن فى العدو ويمزق . ولكن مقاتلة ليلى كانوا مئات ، ومقاتلة أسرحدون ألوفا ، وشعر ليلى بنفسه يُجرَح ويؤسر .

ومشى تسعة أيام مقيداً فى السلاسل مع غيره من الأسرى ، بين جنود أسرحدون . وفى اليوم العاشر أُحضر إلى نينوى ، ووضع فى قفص . وكان ليلى يقاسى عذاب الجوع ولهيب الجروح . ولكن آلام الذل والقهر كانت عليه أقسى ، فقد وجد نفسه عاجزاً عن أن يجزى عدوه عما أنزله به من شر .

شىء واحد كان يستطيع أن يفعله : ألا يسمح لعدوه أن يلتذ بعذابه . ولهذا قرر بعزم رجل أن يتحمل كل ما يحدث له دون أن يشكو .

وظل عشرين يوماً فى قفصه ينتظر الموت . ورأى أقاربه وأصدقاءه يؤخذون إلى ساحة الإعدام ، وسمع أنين الذين قطعت أيديهم وأرجلهم أو سلخ جلدهم وهم أحياء ، فلم يبد انزعاجاً ولا شفقة ولا خوفا . ورأى الخصيان يقودون زوجته المحبوبة فى السلاسل ؛ وعرف أنهم يأخذونها لتكون جارية لأسرحدون . فتحمل ذلك أيضا دون أن يشكو .

ثم فتح جلادان القفص ، وقيدا يديه من خلفه بسير ، وقاداه إلى ساحة الإعدام المخضبة بالدماء . ورأى خشبة التعذيب الدامية التى انتُزع من فوقها جسد صديقه منذ لحظات ، وعرف أنهم لم يخلوا الخشبة إلا ليعدموه .

ونزعت عنه ملابسه . وارتعد ليلى لنحول جسمه الذى كان فيما مضى قوياً جميلا .

وأمسك جلادان جسمه من حرقفتيه ، ورفعاه ، وهمّا بوضعه على الخشبة .

وقال ليلى لنفسه : الموت أمامى ، الفناء ! ونسى عزمه أن يحتفظ بهدوء الرجولة حتى النهاية . فبكى وسأل العفو ، ولكن أحداً لم يسمعه .

قال لنفسه : ولكن هذا مستحيل . لا بد أنى نائم . هذا حلم . وهمّ ليستيقظ . قال لنفسه : وبعد فأنا لست ليلى ، إننى أسرحدون .

وسمع صوتا يقول : « أنت ليلى ، وأنت أسرحدون . » وشعر بأن تنفيذ الإعدام يبدأ . فصرخ ، ورفع رأسه من الحوض . كان الشيخ المعمر منحنيا فوقه يصب بقية الماء من الإناء على رأسه .

قال أسرحدون :

— ما أقسى العذاب الذى كابدته ! وما أطوله !

فسأل الشيخ المعمر :

ـ ما أطوله ؟ إنك لم تزد على أن حنيت رأسك ، وسرعان مارفعته ثانية . انظر ! إن الماء فى الإناء لم يفرغ بعد . هل تفهم الآن ؟

ولم يحر أسرحدون جوابا ، ولكنه نظر إلى الشيخ المعمر فى فزع . ومضى الشيخ المعمر يقول :

ـ هل تفهم الآن أن ليلى وإياك واحد ، وأن المقاتلة الذين أسلمتهم إلى الموت هم معك واحد ، وليس المقاتلة فحسب بل الحيوانات التى قتلتها فى صيدك وأكلتها فى ولائمك ؛ لقد كنت تحسب أن الحياة فيك أنت وحدك ، ولكننى مزقت قناع الخطأ ، فرأيت أنك أوقعت بنفسك كل شر أوقعته بغيرك . هناك حياة واحدة فى كل واحد ، وأنت بمفردك لست إلا جزءاً من تلك الحياة . وفى ذلك الجزء وحده ، فيك أنت ، يمكنك أن تجعل الحياة خيراً أو شرا ، أعظم أو أحقر . يمكنك أن تجعل الحياة خيراً فى نفسك بأن تهدم الأسوار التى تفصل حياتك عن حياة سائر الكائنات ، وتنظر إلى سائر الكائنات كما تنظر إلى نفسك ، وتحبهم . ولكن ليس فى مقدورك أن تقضى على الحياة فى الكائنات غيرك ، فحياة الكائنات التى قتلتها قد غابت عن بصرك ولكنها لم تنقطع عن الوجود . لقد حسبت أنك تطيل حياتك وتقصر

حياة غيرك ، ولكنك لا تستطيع ذلك . فعند الحياة لا زمان ولا مكان . الحياة لحظة ، والحياة ألف سنة ، وحياتك وحياة كل كائن ظاهر أو خفى فى العالم واحد . إننا لا نستطيع القضاء على الحياة ولا تحويلها ، فليس هناك إلا حياة واحدة ، وكل ما عدا ذلك باطل .

هكذا تكلم الشيخ المعمر ، ثم اختفى .

وفى الصباح أمر الملك أسرحدون بإطلاق سراح ليلى وجميع الأسرى . وأمر ألا يُعدم أحد بعد ذلك .

وفى اليوم التالى دعا ابنه أشور بانيبال وسلم إليه العرش ، أما هو فخرج إلى الصحراء ، وتأمل فيما تعلمه . ثم راح يطوف بالمدن والقرى يعظ الناس أن الحياة كلها واحدة ، وأن الناس لا يسيئون إلا إلى أنفسهم حين يفكرون فى إلحاق الأذى بغيرهم .



مابه حياة الناس

نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة . فمن لا يحب أخاه يبقى فى الموت . (يوحنا ١ : ٣ : ١٤) .

وأما من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجا وأغلق أحشاءه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه . (٣ : ١٧) .

يا أولادى لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق (٣ : ١٨) .

لأن المحبة هى من الله وكل من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله (٤ : ٧) .

الله لم ينظره أحد قط . إن أحب بعضنا بعضاً فالله يثبت فينا ومحبته قد تكملت فينا (٤ : ١٢) .

الله محبة ومن يثبت فى المحبة يثبت فى الله والله فيه . (٤ : ١٦)

إن قال أحد إنى أحب الله وأبغض أخاه فهو كاذب ؛ لأن من لا يحب أخاه الذى أبصره كيف يقدر أن يحب الله الذى لم يبصره (٤ : ٢٠) .

— ١ —

كان صانع أحذية يسكن مع زوجته وأبنائه فى منزل أحد الفلاحين .

لم يكن له منزل ولا أرض ، وكان يعول نفسه وأسرته من عمل يديه .

وكان الخبز غالياً والعمل رخيصاً ، فكان يأكل ما يكسبه .

وكان للزوج والزوجة معطف واحد من جلود الضأن يتبادلانه بينهما . وحتى هذا المعطف كان رثاً ممزقا ، وكان صانع الأحذية قد نوى منذ عامين أن يشترى جلود ضأن ليتخذ منها معطفاً جديداً .

وعندما دخل الخريف كان صانع الأحذية قد جمع مبلغاً صغيراً من النقود : فكان عند زوجته ثلاثة روبلات فى درجها ، وكان فلاحو القرية مدينين له بخمسة روبلات وعشرين كوبكا .

وذات صباح ذهب صانع الأحذية مبكراً إلى القرية ليشترى الجلود . فلبس سترة زوجته المبطنة فوق قميصه ، وقفطانه القماش فوق السترة ، ودس الورقة ذات الروبلات الثلاثة فى جيبه ، واتخذ عصا من فرع شجرة ، وانطلق بعد الإفطار إلى القرية .

قال لنفسه : سأحصل على خمسة روبلات من الفلاحين ، وأضعها على الثلاثة التي معي ، وأشترى جلوداً للمعطف .

ووصل صانع الأحذية إلى القرية ، وذهب إلى أحد الفلاحين فلم يكن الرجل فى المنزل ، ووعدت الزوجة أن تبعث رجلها بالنقود قبل أن ينتهى الأسبوع ، ولكنها لم تعط صانع الأحذية شيئا . فذهب إلى فلاح ثان ، فحلف هذا بكل مقدس أنه لا يملك نقودا ، ولم يدفع إلا عشرين كوبكا فى إصلاح فتق . فحدث صانع الأحذيه نفسه أن يشترى جلود الضأن بالنسيئة ، ولكن الدباغ أبى أن ينسئه . قال :

— أحضر النقود واختر ما تشاء . أنا أعلم كيف يضطر الرجل إلى الجرى وراء ديونه .

فلم يبق لصانع الأحذية إلا أن يعود فارغ اليدين ، وكان كل ما حصل عليه هو العشرون كوبكا أجر إصلاح الفتق ، مع حذاء قديم من اللباد لأحد الفلاحين أخذه كى يهيئه له نعلا .

وأنفق صانع الأحذية العشرين كوبكا — من ضيقه — فى شرب الخمر ، وذهب إلى بيته بغير جلد الضأن . لقد كان يشعر بالبرد فى الصباح ، أما الآن بعد أن شرب الخمر فقد شعر بالدفء

دون جلد ضأن . وعلى ذلك سار فى طريقه يضرب الحصى المتجمد بعصاه فى إحدى اليدين ، ويطوح حذاء اللباد فى اليد الأخرى ، ويقول لنفسه : « إننى أشعر بالدفء وإن لم يكن علىّ جلد ضأن . كأس أو كأسان تجريان الدم فى عروقك ، فما الحاجة إلى جلد ضأن ؟ أنا سائر فى طريق ، لا أفكر فى أحزانى . هكذا أنا . وما حاجتى إلى مزيد ؟ أنا لا أحتاج إلى جلد ضأن ، ولن أحتاج أبداً ، طول عمرى . لا يضايقنى إلا شىء واحد . أن العجوز سوف تقول وتعيد . وهذا شىء يغيظ — نعم ، هو كذلك . أنت تشتغل له حتى تهلك ، وهو يسحبك من أذنك . اسمع ، إن لم تحضر النقود سأخطف قبعتك . قسماً بالله سأخطفها منك . وما قصده من إعطائى قطعتين بعشرة كوپكات — ماذا أفعل بعشرين كوپكا ؟ على الأكثر أشرب بها . يقول : « إنى معذور . » أنت معذور — وأنا ألست معذوراً ؟ أنت تملك منزلا ، وتملك ماشية وأشياء أخرى فوق ذلك وأنا لا املك إلا نفسى . أنت تملك خبزك ، وأنا يجب أن أشتريه — أحصل عليه حيث أستطيع . الخبز وحده يكلفنى ثلاثة روبلات كل أسبوع . وعندما أعود إلى البيت يكون الخبز قد نفد ، وعلىّ أن أصرف روبلا ونصف روبل من جديد . يجب أن تعطينى ما عليك . »

وعلى هذا وصل صانع الأحذية إلى الكنيسة الصغيرة عند

المنحنى . وخلف الكنيسة رأى شيئاً أبيض يلمع . وكانت الظلمة تنزل . ونظر صانع الأحذية ونظر فلم يتبين ما هو . قال لنفسه : لم يكن هناك حجر قط . لعله حيوان ؟ ليست له هيئة حيوان . إن الرأس أشبه برأس إنسان ، ولكن ماذا عسى أن يكون الجزء الأبيض ؟ وماذا عسى أن يفعل إنسان هنا ؟

واقترب فرآه بوضوح . ياللعجب ! رجل يجلس هناك ، حياً أو ميتا ، لا يستره شيء،مستنداً إلى الكنيسة ، لا يتحرك . وارتعد صانع الأحذية . لا بد أن أحداً قتل ، وسلبه المجرمون وتركوه راقداً هنا . إذا اقتربت منه فقد تلصق بي التهمة .

ومضى صانع الأحذية فى طريقه . وعندما جاوز المنحنى اختفى الرجل . ومضى فى طريقه . ثم التفت خلفه . وإذا بالرجل لم يعد مستنداً إلى الكنيسة ، بل كان يتحرك وكأنه يرقب شيئاً . وازداد صانع الأحذية رعباً . قال فى نفسه : أأذهب إليه أم أمضى فى طريقى ؟ إن ذهبت إليه فقد يحدث شيء . من يدرى ماذا يكون ؟ ليس خيراً ماجاء به إلى هنا . إن رجعت إليه فقد يهجم علىّ ويخنقنى بلا رحمة — وإن لم يخنقنى فماذا أفعل به ؟ أى نفع من رجل عريان ؟ هل أنزع ملابسى عن جسمى وأعطيه إياها ؟ سأمضى فى طريقى .

وأسرع صانع الأحذية خطاه . وكان قد ابتعد عن الكنيسة عندما استيقظ ضميره .

فوقف وقال لنفسه : ماذا تفعل ياسيميون ؟ رجل يموت محتاجاً ، وأنت تمر كالجبان ! كأنك انقلبت غنياً فأنت تخشى أن يسرق أموالك ؟ يالخزيك ياسيميون !

ورجع سيميون أدراجه وقصد إلى الرجل .

— ٢ —

قصد سيميون إلى الرجل ، ونظر إليه ، فإذا هو شاب فى ريعان الصحة ، ليس فى جسمه جرح واحد ، إلا أنه مقرور مذعور ؛ كان يجلس هناك مستنداً إلى الحائط ، غير ناظر إلى سيميون ، كأنه أضعف من أن يفتح عينيه . واقترب منه سيميون ، وإذا بالرجل يثوب ، ويدير رأسه ، ويفتح عينيه ، وينظر إلى سيميون ؛ وملأت النظرة سيميون حباً للرجل ، فألقى حذاء اللباد على الأرض ، ونزع الحزام ، ووضعه على الحذاء وخلع قفطانه . قال:

— إليك ، خذ هذا ! لا تشكرنى ! البسه — هيا ، هيا .

وأمسك سيميون بالرجل من تحت إبطيه وأوقفه على قدميه . فوقف الرجل ، ورأى سيميون أن جسمه نظيف رقيق ، ويديه

وقدميه لا شية فيها ، ووجهه حلو سمح . وألقى سيميون القفطان على كتفى الرجل ، ولكنه لم يستطع أن يدخل ذراعيه فى الكمين ، فساعده سيميون على إدخال يديه ، ولف القفطان عليه وزرره ، وشبك الحزام على وسطه .

ثم خلع سيميون قبعته البالية ، عازماً أن يضعها على رأس الرجل العريان ، ولكنه شعر بالبرد فى رأسه هو ، فقال لنفسه : مهلا ، إن رأسى أصلع كله ، وهو ذو شعر طويل جعد — وعلى ذلك لبس قبعته — خير لى أن أعطيه حذاء بدلا من القبعة .

وأجلس الرجل ، وألبسه حذاء اللباد .

وعندما فرغ صانع الأحذية من كسوته كما فعل ، قال :

— والآن يا أخى نشِّط نفسك ، وحاول أن تدفأ . سوف تنجلى الأمور دون أن نعنى أنفسنا بها . هل تقدر أن تمشى ؟

ولم يتحرك الرجل ، ونظر إلى سيميون بحب ولم يحر جوابا .

— لماذا لا تقول شيئاً ، إننا لا نقدر أن نمضى الشتاء هنا . يجب أن نبحث عن مكان نقيم فيه . هيا ، خذ عصاى لتتوكأ عليها إن كنت ضعيفا . ولنسرع .

ومشى الرجل ، وكان يمشى بسهولة ، ويجارى رفيقه فى سرعته .

وفيما هما يمشيان كذلك قال سيميون :

ــ من أين قدمت يا ترى ؟

ــ لست من هذه القرية .

ــ أنا أعرف أهل هذه القرية . كيف اتفق أن جئت إلى الكنيسة ؟

ــ لا أستطيع أن أخبرك .

ــ هل أساء إليك أحد ؟

ــ لم يسىء إلى أحد ؛ ولكن الله عاقبنى .

ــ نعم ، كل شىء بإرادة الله . ولكنك مع ذلك لا يمكن أن تعيش دون سقف يظلك . ما طريقك ؟

ــ كل الطرق لدىّ سواء .

وتحيّر سيميون ، فالرجل لا يشبه المجرمين ، وكلامه لطيف ، ولكنه لا يقول كلمة واحدة عن نفسه . وفكر سيميون أن ذلك كثيراً ما يحدث فى هذه الدنيا ، ثم قال للرجل :

ــ اسمع . تعال إلى منزلى ، ولو لتستريح قليلا .

وقصد سيميون إلى منزله ، والرجل يواكبه . وكانت الريح قد نشطت ، وراحت تضرب بحدة تحت سترة سيميون ، وزال سكره شيئا فشيئا ، وشعر بالبرد . وعلى ذلك كان يمشى فى الريح ،

وهو يتنفس بصوت مسموع ، ويلفلف نفسه فى سترة المرأة ، ويفكر : ها قد فعلتها . خرجت لأشترى جلد ضأن ، ورجعت بدون قفطان ، ومعى رجل عريان . لن تكون العجوز جد مسرورة ! وعندما فكر سيميون فى زوجته بدأ يقلق ، ولكنه حين التفت إلى الغريب تذكر كيف نظر إليه الرجل خلف الكنيسة ، ووثب قلبه فرحا .

— ٣ —

كانت زوجة سيميون قد فرغت من شغل المنزل مبكرة . فقد كسَّرت الخشب ، وأحضرت الماء ، وأطعمت الأطفال ، وأكلت هى أيضاً ؛ ثم أخذت تفكر . كانت تفكر متى تضع الخبز فى الفرن : اليوم أم غدا ؛ وكانت لا تزال هناك قطعة كبيرة من الخبز .

قالت لنفسها : إذا أكل سيميون فى القرية ظهرا ، ولم يأكل كثيراً فى العشاء . فسيبقى الخبز إلى الغد .

وقلّبت ماتريونا قطعة الخبز فى يديها ، وقالت لنفسها : لن أضع الأرغفة فى الفرن اليوم . لم يبق دقيق كثير على كل حال . إنه يكفى إلى يوم الجمعة . ووضعت ماتريونا الخبز فى ناحية ، وجلست إلى المنضدة لتصلح قميص زوجها . وبينما هى تخيط كانت تفكر فى أن

زوجها يشترى جلود الضأن للمعطف .

ياخوفى أن يغشه الدباغ ! حقاً إن شيخى رجل ساذج . لا يمكن أن يغش أحدا . ولكن أى طفل يقدر أن يسحبه من أذنه . ثمانية روبلات ليست بالشىء القليل ، تكفى لشراء جلد ضأن جيد ، حتى ولو لم يكن مدبوغاً فإن هذا لا يمنع أن يكون جلداً جيداً . الشتاء الماضى قضيناه بدون جلد ضأن . لم نقدر أن نذهب إلى النهر ، أو إلى أى مكان . وعندما كان زوجى يخرج كان يضطر أن يضع كل شىء على جسمه . وحتى اليوم لبس كل شىء عندما خرج ، ولم يترك لى فتلة واحدة . لقد خرج مبكرا ، وكان يجب أن يعود الآن . أخاف أن يكون طيرى قد وقع فى بعض الشباك.

وبينما كانت تفكر فى ذلك طقطق الدرَج ، ودخل رجل . فشبكت ماتريونا إبرتها فى القميص وذهب إلى باحة الدار . وإذا برجلين اثنين : سيميون ومعه رجل فى حذاء من اللباد ، ليس على رأسه قبعة .

ولاحظت ماتريونا على الفور رائحة الخمر التى كانت تنبعث من زوجها . قالت لنفسها : حسنا ، ما حسبته لقيته ، إنه وقع . وعندما رأته قد رجع بدون قفطانه ، وليس عليه إلا السترة ، وليس معه شىء ، ولم يقل كلمة ، والخجل بادٍ عليه ، انقبض قلب

ماتريونا . وحدثت نفسها أنه شرب بالنقود . لقد ذهب إلى الخان مع أول أفاق قابله ، وفرق ذا وذا أحضره إلى البيت .

تركتهما ماتريونا يدخلان الحجرة ، ثم دخلت هي أيضا . ورأت الغريب رجلا نحيلا ، يلبس القفطان الذى كان لها هي وزوجها . ولم يكن ثمة قميص يرى تحت القفطان ، ولا كان عليه قبعة . وقف كما دخل ، لم يتحرك ولم يرفع عينيه . وقالت ماتريونا لنفسها : لا يمكن أن يكون رجلا شريفاً وهو خزيان هكذا .

ونظرت ماتريونا نظرة سوداء ، وقصدت إلى الفرن لتنتظر ما عسى أن يفعله الآخران .

وخلع سيميون قبعته ، وجلس على الدكة كأن شيئا لم يحدث . قال :

ـــ هيا ياماتريونا . جهزى لنا عشاءً .

وزمجرت ماتريونا بينها وبين نفسها . وظلت واقفة بجانب الفرن لا تحرك إصبعا ، بل تردد نظرها بينهما وتهز رأسها . وتظاهر هو بأنه لم يلاحظ شيئا ، وأمسك بيد الغريب قال :

ـــ اجلس يا أخى . سنتعشى .

وجلس الغريب على الدكة .

ـــ حسنا ، ألم تطبخى شيئاً ؟

واحتدم غضب ماتريونا :

— بلى طبخت ، ولكنى لم أطبخ لك . لقد شربت حتى فقدت رشدك كما أرى . تخرج لتشترى جلد ضأن وتعود بدون معطف . وفوق ذلك تجر معك عرياناً صعلوكاً إلى بيتى . ليس عندى عشاء لكما ياسكيران .

— ماذا جرى لك يا ماتريونا . ما هذا الكلام الفارغ ؟ . ألا تسألين أولا من الرجل —

— وأنت تخبرنى ماذا فعلت بالنقود .

فأدخل سيميون يده فى القفطان وأخرج الورقة وبسطها .

— هاك النقود . وتريفينوف لم يدفع . أجلنى إلى الغد .

وهنا ثارت ماتريونا ثورة أشد :

— أنت لم تشترِ جلد الضأن ، وتلبس آخر قفطان عندك لهذا الشحاذ ، وتحضره إلى منزلى !

قالت ذلك ومدت يدها فأخذت الورقة ذات الثلاثة الروبلات ، وكانت على المنضدة ، فوضعتها فى الدرج ، وقالت :

— لا عشاء عندى . لا يمكننى أن أطعم كل سكير عريان أراه .

— مهلاً يا ماتريونا ، لا تطلق لسانك . اسمعى ما يقال لك .

— وماذا عسى أن يقول أحمق سكران ؟ أنا أعرف لماذا كنت لا أريد أن أتزوجك يا حليف الزجاجة ، كانت أمى تعطينى القماش

وأنت تسكر بثمنه . تذهب إلى القرية لتشترى جلد ضأن فتشرب حتى تسكر .

وحاول سيميون أن يبين لزوجته أنه لم يصرف فى الشراب إلا عشرين كوپكا ، وحاول أن يخبرها أين لقى الرجل ، ولكن ماتريونا لم تمكنه من أن يقول كلمة واحدة ، فقد ظل لسانها يدور كأنه عجلة طاحونة ، وجعلت تعيّره بقصص مرت عليها عشر سنوات .

وظلت ماتريونا تتكلم وتتكلم . وأخيراً انقضت على سيميون وأمسكته من كمه قائلة :

— أعطنى سترتى . لم يبق لى إلا سترة واحدة وأنت تأخذها وتلبسها . هاتها يا جبان . جاءتك داهية !

وحاول سيميون أن يخلع السترة فانقلب الكمان وهو يفعل ذلك ، فشدتها ماتريونا فطقطقت من كل جانب. وانتزعت ماتريونا السترة وألقتها على رأسها وهرعت إلى الباب . وهمت بالخروج ولكنها توقفت . كان قلبها يكاد ينشق غضبا ، ولكنها كانت لا تزال تود أن تعلم من الشخص الغريب .

فتلبثت لتقول :

— لو كان رجلاً طيبا لما كان عريانا . إنه لا يملك حتى قيصا يضعه على ظهره : ولو لم تكن أنت قد فعلت ما لا ينبغى لك لقلت

أين وجدت هـذا السيد العظيم .

ـــ ولـكن هذا ما أحاول أن أقوله . لقد كنت ماشيا فرأيت هذا الرجل ، عريانا مقروراً ، يجلس بجانب الـكنيسة . لسنا فى الصيف ، حتى يجلس امرؤ هناك عريانا . الله ساقنى لهذا الرجل ، ولولا ذلك لقضى عليه . ماذا أعمل ؟ ليس هذا بالأمر المستغرب . أخذته وألبسته وأحضرته معى . اهدئى . حرام يا ماتريونا . تذكرى ساعة الموت .

وكانت ماتريونا موشكة أن تبدأ فى التأنيب ، عندما أضاءت عينها على الرجل الغريب ، فصمتت . كان الغريب جالسا هناك لا يتحرك ، كان جالسا على حافة الدكة ، على هيئته منذ دخل ، ويداه مشبوكتان على ركبتيه ، ورأسه منكس على صدره ، وعيناه مغمضتان ، وحاجباه معقودان كأنه يعانى ألما . ولم تنطق ماتريونا بكلمة ، ولـكن سيميون قال :

ـــ ماتريونا ، أما فيك شيء من روح الله ؟

وسمعته ماتريونا ، فنظرت إلى الغريب ثانية ، وتحرك قلبها فجأة ، فابتعدت عن الباب ، وذهبت إلى زاوية الفرن ، وجهزت العشاء ـــ وضعت الأطباق على المنضدة، وصبت بعض «الـكفاس»[1] ،

---

(١) نوع من الجعة ، شراب شعبي عند الروس . (المترجم)

وأحضرت آخر قطعة من الخبز . قالت :

ـ هيا ، كلا .

وجذب سيميون الغريب قائلا :

ـ اقترب يا أخي .

وقطع سيميون الخبز ، وغمسه ، وبدآ يأكلان . وكانت ماتريونا جالسة إلى ركن المنضدة ، معتمدة برأسها على يدها ، تنظر إلى الغريب .

واستحوذت على ماتريونا رحمة بالغريب ، وبدأت تفرح به . وفجأة انبسط حاجبا الغريب ، بدا عليه البشر ، وثبّت عينيه على ماتريونا ، وابتسم .

وانتهى العشاء ، فرفعت ماتريونا الأطباق ، وبدأت تسأل الغريب :

ـ من أين أنت ؟

ـ لست من هنا .

ـ وماذا جاء بك إلى هنا ؟

ـ لا أستطيع أن أقول .

ـ من سرقك ؟

ـ الله عاقبني .

ـ كنت ترقد هناك عريانا هكذا ؟

— نعم ، كنت أرقد هكذا : عريانا مقروراً ، ثم رآنى سيميون ، فرحمنى ، وخلع قفطانه ، وكسانى إياه ، وقال لى أن أجىء معه . وهذه أنت قد أطعمتنى وسقيتنى ، وعطفت علىّ . فليكافئك الله .

ووقفت ماتريونا ، وأخذت من النافذة قميص سيميون القديم الذى كانت تصلحه ، وناولته للغريب . وكذلك وجدت سراويل وأعطته إياها .

وخلع الغريب القفطان ، ولبس القميص ، ورقد على الدكة . وأطفأت ماتريونا النور ، وأخذت القفطان ، وزحفت إلى جوار زوجها .

وتغطت ماتريونا بأحد طرفى القفطان ، ولكنها بقيت ساهرة ؛ فإنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير فى أمر الغريب .

وكانت إذا تذكرت أنها أكلت آخر قطعة من الخبز ، ولم تبق كسرة واحدة للغد ، وإذا فكرت أنها نزلت عن القميص والسراويل ، تشعر بالكآبة ، ولكنها حين تتذكر كيف ابتسم يثب قلبها من الفرح .

أرقت ماتريونا طويلا ، ثم تنبهت إلى أن سيميون غير نائم أيضا ، وأنه يسحب القفطان إلى ناحيته .

— سيميون !

— إيه ؟

— لقد أكلنا آخر كسرة من الخبز ، ولم أضع خبزاً فى الفرن . لا أدرى ماذا نفعل غدا . سأضطر أن آخذ بعضا من جارتنا العجوز .

— إن عشنا سنجد ما نأكله .

ورقدت ساكنة من جديد ، ولم تقل شيئا .

— إنه يبدو مع كل ذلك رجلاً شريفا . ولكن الغريب أنه لا يقول شيئا عن نفسه .

— لعله لا يستطيع .

— سيم . . .

— إيه ؟

— نحن نعطى الآخرين ، ولكن لماذا لا يعطينا أحد ؟

ولم يدر سيميون بماذا يجيب . فقال : « كفى عن كلامك . » ودار على جنبه ونام .

— ٥ —

استيقظ سيميون فى الصباح ، وكان الأطفال نائمين ، وزوجته قد ذهبت إلى الجيران لتقترض خبزا . أما الغريب صاحبه بالأمس فكان جالسا على الدكة فى سراويل قديمة وقميص قديم ، وهو ينظر إلى أعلى . وكان وجهه أكثر إشراقا مما كان بالأمس .

وقال سيميون :

— اسمع ياصديقى . الجسم يطلب الخبز ، والأطراف العارية

تطلب الـكساء . يجب أن يأكل الإنسان . ماذا تستطيع أن تعمل ؟

— لا أستطيع أن أعمل شيئا .

فدهش سيميون ، وقال :

— العبرة بالإرادة . كل شيء يمكن تعلمه .

— الناس يشتغلون . إذاً سأشتغل أيضاً .

— كيف أدعوك ؟

— ميكائيل .

— حسناً ياميكائيل . لا حاجة بك أن تحدثنى عن نفسك . ولـكن الإنسان يجب أن يأكل . ستؤدى العمل الذى أعطيك إياه ، فأقدم لك ما تأكله .

— جزاك الله خيرا . أنا أستطيع أن أتعلم . أرنى ماذا أعمل .

فتناول سيميون خيطا ، ولفه على أصابعه ، وعقده .

— ليس فى الأمر سر عظيم . انظر . . .

ونظر ميكائيل ، ولف خيطاً على أصابعه كما فعل صانع الأحذية . وعقد عقدة .

ثم أراه سيميون كيف يضع الشريط ، وكيف يخرز الخيط ، وكيف يستعمل السندان ، وميكائيل يفهم سريعا .

وكان سيميون كلما أراه عملا فهمه على الفور ، وبعد اليوم الثالث

بدأ يعمل كأنه كان يخيط الأحذية طول عمره . وكان يعمل دون أن يتحرك من مكانه ، ويأكل قليلا ، وإذا لم يكن ثمة عمل ظل جالساً ينظر إلى أعلى . ولم يكن يغادر الحجرة ، ولا ينطق بلغو ، ولا يمزح ولا يضحك.

لم يروه يضحك إلا مرة واحدة ، وكان ذلك فى المساء الأول ، عندما أحضرت له المرأة العشاء .

— ٦ —

مرت الأيام فى إثر الأيام ، والأسابيع فى أثر الأسابيع ، حتى انقضى حول كامل ، وميكائيل مقيم يعمل فى منزل سيميون .

وذاع صيت عامل سيميون فى كل مكان . وكان الناس يقولون إن الأحذية التى يصنعها ميكائيل عامل سيميون لا يستطيع أحد أن يصنع مثلها نظافة ومتانة . وكان الناس يأتون من الأنحاء البعيدة ليطلبوا أحذية من سيميون ، فأخذت حاله تروج .

وذات يوم من أيام الشتاء كان سيميون وميكائيل جالسين يعملان عندما أقبلت عربة صغيرة تجرها ثلاثة جياد ، وتصلصل بأجراسها أمام منزل سيميون . فنظرا من النافذة ، ووقفت العربة . وهبط شاب عن مقعد السائق وفتح الباب . فنزل من العربة سيد

يلبس معطفاً من الفراء . نزل من العربة وتقدم من كوخ سيميون وصعد الدرج . وأسرعت ما تريونا تستقبله ، وفتحت الباب على مصراعيه . فانحنى السيد ، ودخل الحجرة ، واعتدل ثانية ،وكان رأسه يكاد يلامس السقف ، وجسمه يملأ ركن الحجرة كله .

نهض سيميون ، وانحنى إلى السيد دهشاً . فما رأى من قبل مثل ذلك الرجل . كان سيميون نفسه نحيلا ، وميكائيل قضيفا ، وماتريونا رقيقة كقشرة من الخشب . ولكن هذا الرجل كان يبدو وكأنه من عالم آخر ، وكان وجهه أحمر منتفخاً ، وعنقه كعنق ثور ، وجسمه كله كأنه صب من حديد .

وقف السيد ليلتقط أنفاسه ، ثم خلع معطفه الفرو ، وجلس على الدكة وقال :

— من المعلّم ؟

فتقدم سيميون خطوة ، وقال :

— أنا ياصاحب السعادة .

ثم نادى السيد خادمه :

— فيديا ، هات الجلد يافتى .

وجاء الرجل بربطة فأخذها السيد ووضعها على المنضدة،وقال :

— افتحها .

ففتح الرجل الربطة .

ولمس الرجل الجلد بإصبع وقال اسيميون :

— اسمع يامعلم . هل ترى هذا الجلد ؟

قال :

— أجل ياصاحب السعادة .

— أجل . . وهل تدرى أى جلد هو ؟

فتحسس سيميون الجلد ، وقال :

— جلدٌ عظيم .

— أحسبه كذلك ! إنك لم تر نظيراً له من قبل ياغبى . إنه جلد ألمانى ، وثمنه عشرون روبلا .

فأخذ سيميون ، وقال :

— وكيف يرى رجل مثلى جلداً كهذا ؟

— طبعاً لا ! يمكنك أن تفصل لى حذاء من هذا الجلد ؟

— أجل ياصاحب السعادة .

وهنا صاح به السيد :

— الكلام عندكم سهل . تذكر لمن تشتغل ، وأى جلدٍ هذا . اصنع لى زوجاً من الأحذية يتحمل عاماً دون أن يتشقق أو يلتوى . إن كنت تستطيع ذلك فابدأ العمل واقطع الجلد . وإن كنت

لا تستطيع فدعه ولا تقطع الجلد . وأقول لك منذ الآن : إن تشقق الحذاء أو التوى قبل أن يمر العام فسأدخلك السجن . وإن لم يتشقق أو يلتوِ فسأعطيك أجرتك عشرة روبلات .

ورِيع سيميون ، ولم يدر ماذا يقول ، ونظر إلى ميكائيل ، وغمزه سائلا بصوت خفيض :

ــ هل آخذه ؟

فأومأ ميكائيل ألا تخف وخذ العمل .

وأطاع سيميون عامله ، وتعهد أن يصنع حذاء يبقى عاماً دون أن يلتوى أو يتشقق .

ونادى السيد خادمه وأمره أن يخلع الحذاء الأيسر . ثم مد قدمه :

ــ خذ مقاسى .

وتناول سيميون شريطاً من الورق طوله نصف متر ، وركع ، ومسح يديه بعناية فى فوطته حتى لا يوسخ جورب السيد ، وبدأ يأخذ مقاسه . فقاس بطن القدم ، ثم ظهرها ، ثم بدأ يقيس الربلة ، فلم يكف طول ورقته ، فقد كان للقدم الضخمة ربلة كالجذع العظيم .

ــ حذارِ أن تجعله ضيقاً عند الساق .

فخاط سيميون قطعة أخرى فى شريطه . وكان السيد جالساً

هناك يحرك إبهاميه فى جوربه وينظر إلى من فى الحجرة . ثم لاحظ ميكائيل ، فقال :

— من هذا الذى معك ؟

— هذا صانع عندى . وسيشتغل فى الحذاء أيضا .

فقال السيد لميكائيل :

— اعتنِ . ولا تنس أن الحذاء يجب أن يعيش عاماً .

والتفت سيميون بدوره إلى ميكائيل ، فلاحظ أنه لا يكاد ينظر إلى السيد . كان واقفاً فى الركن خلف السيد وعيناه تبدوان مركزتين على شخص ما . كان ميكائيل واقفاً هناك يحدق تحديقاً شديداً . وفجأة ابتسم وأشرق وجهه كله .

— لماذا تقف هناك مبتسما أيها الغبى ؟ خيرلك أن تحرص على إتمام الحذاء فى وقته .

فأجابه ميكائيل :

— سيكون حاضراً فى وقته تماماً .

— أرجو ذلك !

ثم لبس السيد حذاءه ثانية ، وتدثر بفرائه ، وذهب إلى الباب . ولكنه نسى أن ينحنى ، فصدم رأسه بالعارضة .

فسب ، ودعك جبينه ، ثم ركب فى العربة وانطلق .

وعندما ذهب السيد قال سيميون :

— رجل من حديد . ليس فى الدنيا هراوة يمكن أن تقتله . لقد كاد يخلع العارضة برأسه ، وهى لم تكد تؤذيه .

ولكن ماتريونا قالت :

— ولماذا لايكون أولئك الناس أقوياء وهم يعيشون كما يعيشون ؟ حتى الموت لايمكنه أن يمس مثل هذا الهيكل الضخم .

— ٧ —

وقال سيميون لميكائيل : حسنا ، لقد أخذنا العمل ، وأخشى أن نكون قد حملنا صليبنا على ظهورنا . فهذا الجلد ثمين والسيد لا يعرف المزاح . يجب أن لانخطىء فى قطع الجلد . افعل ذلك أنت ، فإنك أصح نظراً وأمهر يدا . إليك النموذج . اقطع الجلد بينما أشتغل فى مقدّم الحذاء .

وفعل ميكائيل كما أمره المعلم ، فأخذ جلد السيد وبسطه على المنضدة ووضع قطعة على الأخرى وأخرج سكينه وبدأ يقطع .

وأقبلت ماتريونا لتنظر . فرأت ميكائيل يستخدم المقص ، وحارت فى فهم مايصنع . وكانت ماتريونا تعرف صناعة الأحذية ؛ فنظرت ورأت ميكائيل لايقطع الجلد كما يفعل صانع الأحذية بل يدور حول الحافة بالمقص .

وهمت ماتريونا أن تقول شيئا . ولكنها فكرت : لعلى لا أعلم كيف تصنع أحذية السادة . لعل ميكائيل أدرى منى بذلك ؛ فلن أتدخل .

وقطع ميكائيل الزوج ثم أخذ خيطاً وبدأ يخيط ، لا بخيطين كما يفعل صانعو الأحذية بل بخيط واحد ، كأنه يخيط حذاء للدفن .

وحارت ماتريونا فى ذلك أيضا ، ولكنها لم ترد أن تتدخل . ومضى ميكائيل يخيط ويخيط . وتعشوا . ثم وقف سيميون ، ورأى أن مكائيل قد صنع حذاء دفن من جلد السيد .

وتأوه سيميون بصوت مسموع . وقال فى نفسه : كيف هذا ؟ لقد مضى عام كامل على ميكائيل عندى ، ولم يخطئ خطأ واحداً ، والآن يجلب علىّ مثل هذه المصيبة . لقد طلب السيد حذاء طويلا بنعل مخيط ، وهذا ميكائيل قد صنع له حذاء دفن بلا نعل ، وأتلف الجلد . كيف أسترضى السيد ؟ لن نجد مثل هذا الجلد ثانية .

قال : ماذا فعلت يا أخى ؟ لقد خربت بيتى ! السيد طلب حذاء ، فماذا فعلت ؟

ولم يكد المعلم يبدأ فى تأنيب ميكائيل حتى دقت مطرقة الباب دقات سريعة ، فنظروا من النافذة ، فرأوا فارساً لا يزال يربط جواده ، ففتحوا الباب ، ودخل خادم السيد .

— طاب يومكم .

— طاب يومك . ماذا وراءك ؟

— سيدتى أرسلتنى فى أمر الحذاء .

— ماذا عن الحذاء ؟

— ماذا عن الحذاء ؟ إن السيد لاحاجة له بحذاء. تعيشون أنتم .

— ماذا قلت ؟

— إنه لم يبلغ داره حيا، لقد مات فى العربة. عندما وصلت العربة إلى المنزل وهبطنا لنساعده على النزول رأيناه راقداً هناك كالعدْل رأيناه راقداً وقد مات وجمد . وما استطعنا إخراجه من العربة إلا بعناء فأرسلتنى السيدة قائلة : « أخبر صانع الأحذية أن سيداً أمره بصنع حذاء وأعطاه الجلد . قل له لا حاجة بنا إلى الحذاء الآن . وليقطع من هذا الجلد حذاء دفن للميت بأسرع ما يستطيع . وانتظر أنت هناك حتى يتم حذاء الدفن ، وأحضره معك . » وهأنذا قد جئت .

وتناول ميكائيل بقايا الجلد من على المنضدة ، ولفها ، وأخذ حذاء الدفن وقد تم صنعه فضرب واحداً بالآخر ، ومسحهما بفوطة ، وأعطاهما للرجل ، وأخذ الرجل حذاء الدفن .

— مع السلامة .

مر عام وعام ، وسرعان ما انقضت ستة أعوام على مجيء ميكائيل ليعيش فى بيت سيميون . وكانت حياته هى هى لم تتغير . فهو لا يذهب إلى مكانٍ ما ، ولا ينطق بكلمة لغو ، ولم يروه يبتسم طيلة هذه المدة إلا مرتين : مرة عندما قدمت له المرأة العشاء ، ومرة عندما جاء السيد . وكان سيميون مسروراً بعامله أعظم السرور ، ولم يعد يسأله من أين جاء ، إلا أنه كان خائفا أن يرغب ميكائيل فى تركه .

وذات يوم كانوا جالسين فى المنزل . ووضعت ربة الدار قدر الحديد على النار ، وراح الأولاد يجرون على الدكك ، وينظرون من النافذة . وكان سيميون جالسا بالقرب من إحدى النافذتين يدق ، وميكائيل جالسا بالقرب من النافذة الأخرى يهيء كعبا .

وأقبل الصبي الصغير يجرى على الدكة إلى ميكائيل ، واستند على كتفه ونظر من النافذة .

— انظر يا عمى ميكائيل ! أليست هذه امرأة صاحب الدكان ومعها البنتان ؟ وإحدى البنتين عرجاء .

وما كاد الصبي يتكلم حتى ألقى ميكائيل ما فى يده ، والتفت إلى النافذة ، ونظر إلى الطريق .

ودهش سيميون . فإن ميكائيل لم يكن ينظر قط إلى الطريق ،

وها هو ذا ملتصق بالنافذة يتأمل شيئا فى الخارج . ثم ذهب سيميون إلى النافذة أيضا . حقا لقد كانت ثمة امرأة قادمة صوب داره . وكانت حسنة الملبس ، تمسك بيدى طفلتين تلبسان معطفين صغيرين من الفراء وشملتين مطرزتين . وكانت الطفلتان أشبه بإحداهما الأخرى من الماء بالماء ، حتى ليصعب التمييز بينهما ، ولكن إحداهما كانت مهيضة القدم اليسرى ، وكانت تظلع فى مشيتها .

صعدت المرأة الدرج الخارجي إلى الباحة ، وتلمست الطريق إلى الباب ، وضغطت على المزلاج ، ودخلت . وتركت البنتين تتقدمانها .

— طاب يومك يا عم . طاب يومكِ يا خالة .

— مرحبا . ما طلبك ؟

وجلست المرأة إلى المنضدة ، وزحفت البنتان إلى جانبها ، فقد كانتا نفورين من الأغراب .

— أريد حذاءين صغيرين من الجلد للبنتين يصلحان للربيع .

— حبا وكرامة . إننا لم نصنع من قبل أحذية صغيرة كما تطلبين ، ولكننا نقدر أن نصنعها بإتقان . برقبة أو بدون رقبة ، كما ترغبين . إن ميكائيل قادر على صنع أى شيء .

ونظر سيميون إلى ميكائيل ، فرآه قد ألقى ما كان بيده جانبا ، وجلس يحدق فى البنتين دون أن يحول عينيه عنهما .

ولم يستطع سيميون أن يفهم ماذا جرى لميكائيل . لقد كانت البنتان جميلتين لا شك فى ذلك ، عيون صغيرة سوداء ، وخدود مستديرة حمراء ، وفراءان صغيران جميلان ، وشملتان صغيرتان جميلتان . ولكن سيميون لم يستطع أن يفهم لماذا كان ميكائيل يحدق فيهما ولا يحول عنهما نظره ، وكأنه يعرفهما .

خفى السر على سيميون ، وبدأ يساوم المرأة . واتفقا إلى اتفاق ، فأخذ المقاس . فحملت المرأة الطفلة العرجاء فى حجرها وقالت :

ـــ خذ مقاس هذه الطفلة مرتين . حذاء للقدم اليسرى وثلاثة للقدم السليمة . إن أقدامهما متشابهة تماما ، فهما توأمتان .

وقاس سيميون ، وقال وهو ينظر إلى الطفلة العرجاء :

ـــ وكيف حدث لها ذلك ؟ يا خسارة ، بنت جميلة . هل ولدت هكذا ؟

ـــ لا . لقد هاضتها أمها .

وأقبلت ماتريونا . قالت وقد أرادت أن تعرف من المرأة مَن أم الطفلتين :

ـــ ألست أمهما ؟

ـــ لستُ أمهما ولا قريبة لهما يا خالة . إنهما ربيبتاى.

ـــ ليستا بنتيكِ ، وتحبينهما هذا الحب؟

— كيف لا أحبهما وقد أرضعتهما كلتيهما من ثديي ؟ لقد كان لى ولد وأخذه الله ، ولم أحببه قط كما أحببت هاتين .

— ومن أمهما ؟

— ٩ —

فانطلق لسان المرأة وروت :

— منذ ستة أعوام تيتمت الطفلتان فى أسبوع واحد . مات أبوهما يوم الثلاثاء ، وماتت أمهما يوم الجمعة .

وكنت أنا وزوجى فلاحين وقتذاك . وكنا جيرانهما فى القرية ، نعيش بجنبهما . وكان أبو الطفلتين يعمل فى الغابة ، فذات يوم وقعت عليه شجرة ، وسطّت جسمه فخرجت أحشاؤه .

وما كادوا يعودون به إلى الدار حتى أسلم الروح ، وفى ذلك الأسبوع ولدت له زوجته توأمتين ، هما هاتان الطفلتان . وكان كل ما حولها شقاء ووحشة .

كانت المرأة وحيدة لا أهل لها ولا أبناء ، كانت وحيدة فى ساعة حاجتها ، ووحيدةً ماتت .

وفى اليوم التالى دخلت لأرى جارتى . وعندما دخلت كانت المرأة المسكينة باردة جامدة ، وكانت قد سقطت وهى تحتضر

على الطفلة الصغيرة ، وضغطت على جسمها وهاضت قدمها .

ثم دخل الناس وغسلوها وألبسوها ، وصنعوا لها تابوتا ، ودفنوها . قام الناس الطيبون بكل شيء . وأصبحت الطفلتان وحيدتين ، فماذا نعمل لهما ؟ كنت وحدى من دون النسوة جميعا لى طفل فى الرضاع ، وكنت أرضعه منذ شهرين . فأخذت الطفلتين إلى أن نرى فيهما رأيا . واجتمع الفلاحون لينظروا من يكفل الطفلتين . فقالوا : هلا تأخذين الطفلتين عندك فترة قصيرة يا ماريا ؟ عسى أن يأتى الفرج . فكنت أولا أرضع الطفلة السليمة ، ولا أرضع هذه العرجاء . وظننتها لا تعيش طويلا ، ثم قلت لنفسى : لماذا يموت هذا الملاك الصغير ؟ ورثيت لها ، فأرضعتها هى الأخرى . كنت أرضع طفلى وهاتين معه ، الثلاثة كبروا على هذا الثدى . وكنت شابة قوية ، وكان الغذاء كثيراً . أعطانى الله من اللبن ما كفاهم وزاد . وربما أشبعت اثنين والثالث ينتظر ، فإذا شبع الثانى أخذت الثالث . وأراد الله أن أربى هاتين وأدفن ابنى فى عامه الثانى . ثم لم يعطنى الله أطفالا آخرين بعد ذلك ، ونمت أموالنا ، وأصبحنا نعيش الآن فى الطاحونة مع صاحب الدكان ، ويدفع لنا أجراً طيبا ، ولا نحمل هما . وليس لنا أطفال . فكيف كنت أعيش لولا هاتان البنتان ؟ وكيف لا أحبهما ؟ إنهما قرة عينى .

قالت المرأة ذلك ، وضمت البنت العرجاء بإحدى يديها ، وبالأخرى مسحت الدموع عن خديها .

وتنهدت ماتريونا وقالت :

— صدق المثل . قد يحيا المرء بدون أب ولا أم ، ولكن بدون الله لا يحيا .

هكذا تكلمتا ، عندما أضاء الحجرة فجأة نور باهر من الركن الذى كان يجلس فيه ميكائيل . فنظروا كلهم إليه . كان ميكائيل جالسا ويداه مشبوكتان فى حجره ، وعيناه تنظران إلى أعلى بابتسام .

— ١٠ —

خرجت المرأة بالبنتين ، ثم نهض ميكائيل بدوره عن الدكة ، وخلع فوطته ، وانحنى أمام سيده وسيدته وقال :

— سامحانى يا سيدى وسيدتى . لقد غفر الله لى ، فاغفرا لى أيضا بحق الله .

ورأى المعلم وزوجته أن النور يفيض من ميكائيل . فوقف سيميون وانحنى أمام ميكائيل ، وقال له :

— ميكائيل ، إنى لا أراك بشراً مثل الناس ، وليس لى أن أستبقيك ، وليس لى أن أسألك ، ولكن أخبرنى عن أمر واحد!

لماذا كنت شديد الاكتئاب حين عثرت عليك وجئت بك إلى الدار ؟ ولماذا ابتسمت حين قدمت زوجي إليك العشاء ، وأصبحت أكثر بشراً منذ تلك اللحظة ؟ ثم لماذا ابتسمت ثانية حين جاء السيد ليطلب الحذاء ، وازددت بشراً من بعد ذلك ؟ ثم لماذا ابتسمت مرة ثالثة الآن حين دخلت المرأة بالبنتين ، وغمرك نور ساطع ؟ خبرني يا ميكائيل أنى لك هذا النور ، ولماذا ابتسمت ثلاث مرات ؟

قال ميكائيل :

— لقد أشرق النور لأنى عوقبت والآن غفر الله لى . وقد ابتسمت فى المرة الثالثة لأنى ألزمت أن أفهم ثلاث كلمات لله ، والآن فهمت كلمات الله : فهمت الكلمة الأولى حين عطفت على زوجك ، فابتسمت أول مرة . وفهمت الكلمة الثانية حين أمر الرجل الغنى بصنع الحذاء ، فابتسمت ثانى مرة . والآن حين رأيت البنتين فهمت الكلمة الأخيرة ، الكلمة الثالثة ، وابتسمت ثالث مرة .

ثم قال سيميون :

— خبرنى يا ميكائيل لماذا عاقبك الله ، وما كلمات الله لأعلمها ؟

فقال ميكائيل :

— لقد عاقبنى الله لأنى عصيته . كنت ملكاً فى السماء ، وعصيت الله .

كنت ملكا فى السماء ، وأرسلنى الله لأقبض روح امرأة .

وطرت هابطاً إلى الأرض ، فإذا المرأة ترقد وحيدة مريضة . كانت قد ولدت طفلتين توأمتين . وكانت الطفلتان ترفسان بجوار أمهما ، والأم لا تقدر أن تحملهما إلى ثديها . رأتنى المرأة وعرفت أن الله أرسلنى لأقبض روحها . فبكت وقالت : ياملاك الله ، لقد دفن زوجى منذ قليل ، وقعت عليه شجرة فى الغابة . وليس لى أخت ولا عمة ولا جدة . لا مخلوقة تربى يتيمتىّ . فلا تقبض روحى المسكينة ، ودعنى أرضع طفلتىّ وأربيهما حتى تقفا على قدميهما . فالأطفال لا يحيون بدون أب ولا أم . وأصغيت إلى المرأة . ووضعت إحدى الطفلتين عند ثديها ، والأخرى على ذراعها ، وصعدت إلى الله فى السماء ، وعندما طرت إلى الله قلت : لم أستطع أن أقبض روح المرأة . لقد قتل الأب تحت شجرة ، وولدت الأم توأمتين وتضرعت إلىّ ألا أقبض روحها قائلة : دعنى أرضع الطفلتين وأربيهما حتى تقفا على قدميهما . فالأطفال لا يحيون بدون أب ولا أم . هنالك قال الله لى : عد واقبض روح المرأة ، وستفهم ثلاث كلمات : ستفهم ماذا فى الناس ، وماذا لم يُعْطَ للناس وماذا يحيا به الناس . فإذا فهمت ذلك فعد إلى السماء . فطرت هابطاً إلى الأرض ، وقبضت روح المرأة .

وتدحرجت الطفلتان عن صدرها . وانحطت الجثة الميتة على المهد ، فوقعت على إحداهما وهاضت قدمها . وطرت فوق

أكواخ القرية لأعود بالروح إلى الله فأحاطت بي عاصفة . وتدلى جناحاى فى ضعف ثم سقطا . وارتفعت الروح إلى الله وحدها . أما أنا فهبطت إلى الأرض ، ورقدت على جانب الطريق .

— ١١ —

وعلم سيمنيون وماتريونا . من ذلك الذى كسواه وأطعماه ، ومن كان ضيفهما ، فبكيا خوفاً وفرحا . ولكن الملك قال :

ـــ كنت راقداً فى الحقل عرياناً . لم أعرف من قبل متاعب الإنسان ، لا البرد ولا الجوع ، والآن أصبحت إنساناً . عذبنى الجوع والبرد ولم أدرِ ماذا أفعل . ثم رأيت فى الحقل كنيسة بنيت لله . فذهبت إلى كنيسة الله لأجد فيها مأوى . فوجدتها مغلقة ، ولم أستطع الدخول . فجلست خلف الكنيسة لأحتمى من الريح . وجاء المساء ، وعذبنى الجوع ، وأيبسنى البرد ، واشتملنى ألم واحد كبير . وإذا بى أسمع شيئا . كان رجل يسير فى الطريق ، فى قدميه حذاء ، ويكلم نفسه . ورأيت وجه الإنسان الفانى لأول مرة منذ أصبحت أنا نفسى إنسانا . وملأنى هذا الوجه رعبا . فتحولت عنه. وسمعت الرجل يحدث نفسه كيف يقى جسمه برد الشتاء ، وكيف يجد خبزاً لزوجته وأطفاله . فقلت لنفسى : أنا أموت برداً وجوعا وهذا الرجل السائر هناك لا يفكر إلا أين يجد جلد الضأن ليتدثر به هو

وزوجته ، والخبز ليأكلوه . إنه لن يستطيع معاونتى. ورآنى الرجل فعبس ، وازداد وجهه نكرا ، ومر بى . واستحوذ علىّ اليأس . وإذا بى أسمع الرجل يعود ، فنظرت إليه ، فلم أكد أعرف فيه الرجل الأول . فى المرة الأولى كان فى قسمات وجهه الموت ، والآن دبت فيه الحياة فجأة ، وعرفت فى محياه الله . جاء إلىّ ، وكسانى ، وأخذنى معه ، وسار بى إلى منزله . ودخلت منزله وقابلتنا زوجه ، وبدأت تتكلم . وكانت المرأة أشد نكراً من الرجل . كانت ريح الموت تنفح من فمها ، ولم أستطع أن أتنفس من نتن رائحة الموت . أرادت أن تطردنى إلى العراء وعلمت أنها ستموت إن طردتنى . ثم ذكّرها زوجها الله ، وإذا هى امرأة أخرى . وعندما قدمت إلينا العشاء ، ونظرت إلى ، نظرت إليها . كان الموت قد فارقها ودبت فيها الحياة وفيها أيضاً رأيت الله .

ثم تذكرت أولى كلمات الله : ستفهم ماذا يحيا فى الناس . وعرفت أن الحب يحيا فى الناس . وامتلأت سروراً لأن الله قد بدأ يكشف لى ما وعدنيه ، وابتسمت الأولى . ولكنى لما أستطعْ أن أفهم كل شىء . لما أفهمْ ما الذى لم يعط للناس ، ولا ما به حياة الناس .

وأقمت معكم عاماً كاملا . ثم جاء الرجل الذى أمر بصنع الحذاء ،

حذاء يعيش عاماً دون أن يتمزق أو يلتوى . ونظرت إليه فإذا بى أرى خلف كتفيه رفيق ملك الموت . لم ير الملكَ أحدٌ غيرى ، ولكنى عرفته ، وعرفت أن الشمس لن تغرب حتى تكون روح الرجل الغنى قد فارقته . وقلت لنفسى : الإنسان يدبر لعام قادم ، ولا يعلم أن عمره سينتهى قبل المساء . ثم تذكرت الكلمة الثانية من كلمات الله . ستفهم مالم يُعط للناس .

لقد عرفت ما فى الناس ، والآن عرفت مالم يعط للناس . لم يُعط للناس أن يعلموا ما يحتاجون إليه لحياتهم . فابتسمت الثانية . وسررت لأنى رأيت الملك رفيقى ، ولأن الله كشف لى الكلمة الثانية .

ولكنى لما أفهمْ كل شىء . لما أفهم ما به حياة الناس .

وأقمت معكم ، وانتظرت أن يكشف الله لى عن الكلمة الأخيرة . ومرت خمس سنوات ، ثم جاءت البنتان التوأمتان مع المرأة . وعرفتُ البنتين ، وعرفت كيف بقيت البنتان فى الأحياء . عرفت ذلك وقلت : لقد توسلت المرأة من أجل طفليها وصدقتها ، وظننت الطفلتين لاتحييان بدون أب ولا أم ، والآن أرى المرأة الغريبة قد أرضعتهما ، وربتهما . وعندما ذرفت المرأة دموع الحب لأطفال الغرباء رأيت الله الحى فيها ، وعرفت ما به حياة الناس . وعرفت أن الله كشف لى عن الكلمة الأخيرة وعفا عنى ، فابتسمت الثالثة .

ثم سقطت الملابس عن جسم الملك ، ووقف مغموراً فى النور حتى لم تعد العين تقوى على النظر إليه ، وازداد صوته عظمة حتى كأنه لا يصدر منه بل من السماء . قال الملك :

— فهمت أن كل إنسان لا يحيا بتدبيره لنفسه ، بل بالحب .

لم يعط للمرأة أن تعلم ما الذى تحتاج إليه طفلتاها لتعيشا . ولم يعط للرجل الغنى أن يعلم ما الذى يحتاج إليه . ولم يعط لإنسان أن يعلم أيحتاج إلى حذاء ليلبسه أم إلى خف ليدفن فيه قبل أن ينقضى النهار .

لقد حفظت حياتى البشرية لا لأنى دبرت لحاجاتى بل لأن عابر الطريق كان فيه الحب ، وكان فى زوجه الحب ، ولأنها أحبتنى وعطفت علىّ . وعاشت اليتيمتان لا لأن غيرهما حاولوا أن يدبروا لهما بل لأن المرأة الغريبة كان الحب فى قلبها ، فأحبتهما وعطفت عليهما . والناس جميعاً يحيون لا لأنهم يدبرون لأنفسهم بل لأن الحب فى الناس .

عرفت أن الله أعطى الحياة للناس وأرادهم أن يحيوا . والآن أعرف شيئاً أكثر .

أعرف أن الله لم يرد أن يعيش الناس كلٌّ لنفسه ، ولهذا لم يكشف لهم عما يحتاج إليه كلٌّ منهم لنفسه ، لقد أرادهم أن يعيشوا فى أخوّة ، فكشف لهم عما يحتاجون إليه جميعا لأنفسهم ولغيرهم .

والآن أعرف أن الناس لايحسبون إلا أنهم يحبون بالتدبير لأنفسهم ؛ ولكنهم يحيون بالحب وحده . ومن يَحْىَ بالحبِّ يحْىَ بالله ، ويَحْىَ الله فيه ، فالله هو الحب .

وسبّح الملك بحمد الله فارتجَّ البيت بتسبيحه . وانفتح السقف . وارتفع عمود نار من الأرض إلى السماء . وخر سيميون وزوجه وأطفالهما راكعين ، وانبسط جناحان على ظهر الملك وارتفع إلى السماء .

وعندما ثاب سيميون كان الكوخ كعهده به ، ولم يكن فى الحجرة غير سيميون وأسرته .



فهرس

مطابع دار القلم بالقاهرة



دار القلم

صدر عنها لمشروع

الألف كتاب

	ملیم
• لمن تدق الأجراس «ج ١»	٢٢٥
• لمن تدق الأجراس «ج ٢»	٢٨٠
• الحرية المحرمة...	١١٥
• ميكانيكا السيارات	٢٣٠
• قصص عالمية	٢٤٥
• إيزيس وإيزوريس	١٢٥
• حكايات فارسية	٢٥٥
• الچيولوچيا فى خدمة الإنسان ...	٢١٥
• أول من وصل إلى القمر	٢٢٥
• المكنة البشرية	٢٠٠
• العين والشمس	١٥٥
• محمد إقبال	٢٥٥
• رجال عاشوا للعلم	٢٨٥
• جهود المسلمين فى الجغرافيا	٢٠٥
• نصوص مختارة من تولستوى ...	١٢٥

مطابع دار القلم بالقاهرة

الثمن ١٢,٥ ص